

▶ الرشد الاجتماعي

رؤية قرآنية

ح) أطيف للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصفار، حسن موسى

الرشد الاجتماعي رؤية قرآنية. / حسن موسى الصفار. - القطيف،

١٤٤١هـ

١٩٠ ص، .سم

ردمك: ١-٢٩-٨٢٨١-٦٠٣-٩٧٨

١. التربية الإسلامية ٢. القرآن - مباحث عامة أ. العنوان

١٤٤١/٢٧١٩

ديوي ١، ٣٧٧

رقم الإيداع: ١٤٤١/٢٧١٩

ردمك: ١-٢٩-٨٢٨١-٦٠٣-٩٧٨

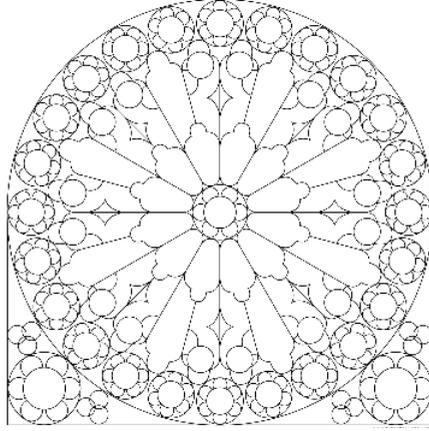
الطبعة الثانية

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م



أطيف للنشر والتوزيع
Atiyaf For Pub. & Dist.

المملكة العربية السعودية - القطيف - تليفون: 00966138549545
atiyaf.qatif@gmail.com



الرشد الاجتماعي

رؤية قرآنية

حسن بن موسى الصفار



مفتتح



القرآن الكريم ليس كتاباً أكاديمياً تخصصياً تقتصر الاستفادة منه على العلماء والمتخصصين، بل هو كتاب أنزله الله للناس، يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٤١]، وقد وصفه تعالى بأنه: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٥]، وأنه: ﴿بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٨]، وأنه: ﴿بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٥٢]، وأن فيه: ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٢٥]، وأنه: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [سورة القصص، الآية: ٤٣].

إلى آيات كثيرة تؤكد أن القرآن خطاب من الله لكل الناس، فعلى كل إنسان أن يستقبل هذا الخطاب الإلهي باعتباره موجهاً إليه، ويتعامل معه على هذا الأساس، فيجتهد في فهمه، ويهتدي به في حياته وسلوكه.

لكن المؤسف أن عامة المسلمين يغفلون عن هذه الحقيقة، ويكتفون بقراءة القرآن الكريم للتعبد والبركة، ويكلون فهمه إلى العلماء والمتخصصين. مع أن القرآن الكريم يدعو الجميع للتأمل والتدبر في آياته، حيث يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٢]، ويقول تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [سورة ص، الآية: ٢٩].

إن كل إنسان يمكنه أن يستفيد من القرآن بقدر استعداده وإدراكه، وكلما كان

أكثر استعدادًا وكفاءة، كان أكثر استفادة وتحصيلًا.

والعلماء والفقهاء هم الأقدر على استنباط الأحكام الشرعية لتأهيلهم العلمي، وبحثهم في مجموع الآيات القرآنية، ومصادر التشريع الأخرى.

إن آيات القرآن تخاطب فطرة الإنسان، وتستثير عقله، وتعالج ما يعرض على نفسه من حالات وتقلبات، وتقوّم ما يصدر عنه من ممارسات وتصرفات، ليختار طريقه، ويتخذ قراره، ببصيرة ووعي.

ولأن أهم تحدٍ يواجهه الإنسان هو تحدي التعامل مع أبناء جنسه، والعلاقة مع محيطه الاجتماعي، لذلك اتسع نطاق الآيات القرآنية المهمة بمعالجة هذا البعد في حياة الإنسان.

وهذه الصفحات بين يدي القارئ الكريم، تضم شيئاً من التأمّلات، كنت قد ألقيتها كدروس ومحاضرات حول بعض آيات القرآن الكريم، مما يتصل بالعلاقات الاجتماعية، من أجل ترشيدها والارتقاء بها إلى مستوى النضج والرشد، وتجاوز تأثيرات النوازع الأنانية والتعصبية والانفعالية.

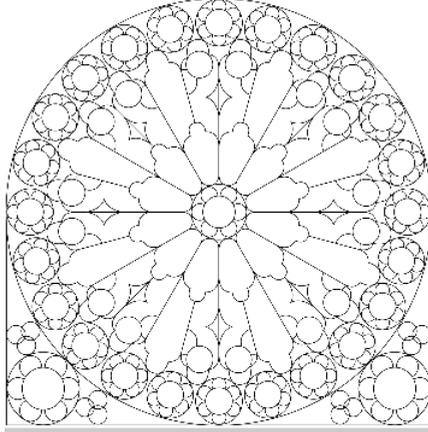
أرجو أن يكون في نشرها ما يسهم في خدمة الوعي والثقافة الاجتماعية.

والله ولي التوفيق،

حسن الصفار

24 ذو القعدة 1440 هـ

27 يوليو 2019 م



الفصل الأول

أفلا يتدبرون القرآن

تدبّر الأمر: تأمّله، والنظر في أدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كلّ تأمل؛ فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصّر ما فيه. والتدبر: التفهم في دبر الأمر، أي ما يخفى منه، وهو مشتق من دبر الشيء، أي خلفه.

والآية الكريمة قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [سورة محمد، الآية: ٢٤] جاءت في سياق الحديث عن المنافقين، الذين يستمعون آيات القرآن ويتلونونها لكنهم لا يتفاعلون مع مراميها ومقاصدها.

والأقفال: جمع قفل، وهي في الأصل من مادة القفل، أي الرجوع، أو من القفيل: أي الأشياء اليابسة، ولما كان المتعارف أنهم إذا أغلقوا الباب قفلوه بقفل، فكلّ من يأتي يقفل راجعاً، ولما كان ما يقفل به موجود صلب لا ينفذ فيه شيء، وهو ما يوصد به الباب ليمنع الآخرين عن دخوله واجتيازه، كانت هذه استعارة لقلب الإنسان الذي انصرف عن حقيقة المعرفة، حتى ختم الله على قلبه، وجعله مقفلاً لا يستقبل معنى القرآن وعظمته.

وقفيل: ما يبس من الزرع، فما عاد ينتفع بأشعة الشمس ولا بالهواء، وعلى هذا تكون الاستعارة على معنى أن القلب إذا أهمل كتاب ربه، فلم يتدبّر معانيه، وأغراض آياته، فكأنه شجرة يابسة افتقدت نضارتها وقوتها، فما عادت تنتفع بما

حولها من تربة وماء وضياء.

وشبيه بهذا السياق جاءت الآية الأخرى في سورة النساء ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٢].

أما الآيات التي أشارت إلى ضرورة تدبر القرآن الكريم، ولزوم الأخذ به، فقد احتلت حيزًا واسعًا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص، الآية: ٢٩].

القراءة السطحية

إن كافة المسلمين يقرؤون القرآن ويعظمونه، لكن من المؤسف جدًا أن هذه القراءة تبقى قراءة سطحية قشرية ظاهرية، لا ننفذ من خلالها إلى معاني القرآن ومضامينه، من هنا تجد أن حياة المسلمين في غالبهم تصطدم اصطدامًا واضحًا وظاهرًا مع آيات القرآن، يقرؤون القرآن لكن ليس هناك تفاعل مع توجيهاته، لأن أول مرحلة من مراحل التفاعل مع القرآن فهم معنى الآية، أن يتدبر في الآية ليعرف النتيجة التي تريد أن توصله إليها؛ لأن التدبر من دبر الشيء ومن خلفيته وما يؤول إليه، لكن عامة الناس لا يكلفون أنفسهم جهدًا من أجل أن يفهموا معاني الآيات، فيقرأ القرآن في الفواتح، في الصلاة، في المناسبات.. ولكن لا يكاد يكون هناك تأثير لهذه القراءة على واقع حياة هؤلاء القارئ، ومن أهم الأسباب أنهم يقرؤون ولا يفهمون، أشبه شيء بإنسان يقرأ كلمات من لغة أخرى تعبدًا، كما يقرؤه غير العربي للتعبد وإن كان لا يعرف معناه.

هل نستطيع فهم آيات القرآن؟

وهناك ثقافة كرسّت هذه الحالة، وهي القول بأن الإنسان العادي لا يستطيع أن يفهم معاني القرآن، والعلماء والمفسرون هم فقط من يعلم معانيه، هذه الثقافة هي التي باعدت بين الناس وبين التدبر في القرآن الكريم، وهي ثقافة خطأ، القرآن

الكريم يدعو الناس - كل الناس - إلى تدبره والتأمل فيه، فالله سبحانه يقول: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص، الآية: ٢٩]. فإنما أنزل القرآن لا لتقرأ آياته، ويتبرك بها فقط، وإنما ليدبروا، وليفهموا معاني هذه الآيات، وخلفيات هذه الكلمات.

قد يقول البعض إن آيات القرآن غامضة لا نستطيع نحن أن نفهمها، هناك شيء من الصحة النسبية في هذه المقولة، بسبب المشكلة اللغوية التي باعدت بيننا وبين لغة القرآن الكريم، و تبدلت على إثرها معاني بعض الكلمات، لكن هذا قد يصدق على بعض الكلمات وبعض الآيات، ولا يصدق على الأكثر منها، والقرآن الكريم يردّ هذا المعنى بكلّ قوة وهو يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [سورة القمر، الآيات: ١٧ - ٢٢ - ٣٢ - ٤٠] فالقرآن ليس غامضاً وليس معقداً وليس صعباً، وهذه الآية الكريمة في سورة القمر تكررت أربع مرات، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٨] فهو لكل الناس وليس لنخبة من الناس وهم العلماء، ومن ذلك قول الإمام زين العابدين عليه السلام: «آياتُ القرآنِ خزائنٌ، فكُلِّمًا فُتِحَتْ خِزَانَتُهُ، يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِيهَا»^(١).

نعم آيات الأحكام قد يحتاج الإنسان إلى مقدرة وخبرة حتى يتمكن من استنباط الحكم الشرعي منها، ولكن حتى بعض آيات الأحكام يمكن أن يفهمها الإنسان العادي لأنها واضحة، وفي رواية أن عبد الأعلى مولى آل سام قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: «عَثَرْتُ، فَأَنْقَطَعَ ظُفْرِي فَجَعَلْتُ عَلَى إِصْبَعِي مَرَارَةً فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِالْوُضُوءِ؟ فَقَالَ: «تَعْرِفُ هَذَا وَأَشْبَاهَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ امْسَحْ عَلَيْهِ»^(٢).

فالإمام يعلمه كيف يستنبط الحكم الشرعي هنا - وليس هذا الحكم فقط، بل

(١) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٩٠٦، حديث ٢.

(٢) محمد بن الحسن الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ١، ص ٣٦٣، حديث ١٠٩٧.

(هذا وأشباهه) - في إمكان كل مسلم أن يأخذ بهذه القاعدة العامة ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وأي حكم ديني يكون في تطبيقه حرج على الإنسان، فإن الله تعالى لا يأمره أن يطبقه بتلك الصورة الحرجية، وإنما ينتقل تكليفه إلى الصورة التي لا تسبب له حرجًا، وقد أشار الشيخ الطبرسي في مجمع البيان إلى أن في آية التدبر «دلالة على بطلان قول من قال: لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن، إلا بخبر وسمع»^(١).

إن القرآن الكريم يؤكد أنه نزل للتطبيق لا للتظهير، نزل لإسعاد البشرية واستنقاذها من براثن الشيطان الرجيم، وأغلال التراب، من التكبر في الأرض، من الجهل والتخلف والهوى.

التدبر مطلوب من الجميع

والآية الشريفة ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ إذ تأمرنا بالتدبر في كتاب الله لم تحدد فئة المتدبرين، معلنة بذلك أن القرآن شرعة لجميع البشر، والواجب عليهم - جميعهم - أن يتدبروا فيه ويستخرجوا كنوزه، ويستظلوا بظله. ولو رجعنا إلى واقعنا العملي اليوم لوجدنا حظًا من تدبر القرآن ضئيلاً جداً، بقدر ضالة حظنا من الحضارة، وهذا من سنن الله سبحانه ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٩٦].

ولو قارنا أوضاعنا بأوضاع الأمم الأخرى، لوجدنا أنفسنا في جوانب كثيرة مسلمين بلا إسلام، بينما يتمتع غيرنا بتطبيق كثير من السنن التي أكدها الإسلام، ويعيش غيرنا حالة الإسلام ولا مسلمين، ذلك لأننا نجد عندهم روح التدبر والتأمل في كل شأن من شؤون الحياة، يتأملون في الذرة كما يتأملون في المجرة، ويكتشفون

(١) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان، ج ٩، ص ١٧٤.

السنن الكونية التي أمرنا القرآن بالتدبر فيها، ويطبقون السلوك القرآني الذي نادى به القرآن، من التنظيم والاحترام وتحمل المسؤوليات، وهذا ليس مدحاً فيهم على إطلاقه، وإنما نحتاج لأن ننظر إلى العالم بنظرة واقعية، لنأخذ الجيد ونترك الخبيث كما يأمرنا القرآن الحكيم.

إننا بحاجة إلى الاقتراب من آيات القرآن الكريم، وأن تكون لدينا ثقة بأنفسنا أننا قادرون على تفهّم آيات القرآن، وأن نطبّقها على أرض واقعنا، والله يحثنا على ذلك ويعيننا عليه ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [سورة القمر، الآية: ١٧].

ويمكننا أن نشير في نقاط موجزة إلى ما يمكننا أن نصل إليه عبر التدبر والتفكير في مضامين القرآن الكريم:

■ التدبر في القرآن يعني الاستفادة من آياته والتأثر بها ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٨٣].

■ التدبر في القرآن يعني فهم قيمه وأفكاره ومبادئه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ١٥-١٦].

■ التدبر في القرآن يعني معالجة المشاكل الإنسانية بطريقة قرآنية ﴿وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٨٢].

■ التدبر في القرآن يعني العمل بما فيه ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص، الآية: ٢٩].



القرآن المهجور



الهجر في اللغة: هو ترك ما من شأنه أن يوصل.

فأيّ جهة كان ينبغي أن تكون على صلة معها ثم تتركها يقال لك هجرتها، ولا يقال لمن لم تعرفه أنك هجرته.

وفي هذه الآية يشكو الرسول ﷺ إلى الله تعالى من هجر قومه للقرآن العظيم، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾، وإنما قال سبحانه ﴿اتَّخَذُوا﴾ ولم يقل (هجروا) ليدلّ على أن الهجر صار ديدنهم ومنهجهم وطريقتهم في التعاطي مع القرآن العظيم.

وقد اختلف المفسرون في المدلول الزمني لهذه الآية، فهل حدثت هذه الشكوى في زمن النبي ﷺ أم أنه سيرفعها إلى الله في يوم القيامة؟

فبعض المفسرين قالوا بأنها حصلت عندما كان الرسول ﷺ يقرأ على قومه القرآن وهم يستنكفون عن الاستماع إليه، كما يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [سورة فصلت، الآية: ٢٦].

لكن عددًا من المفسرين يُرجّحون أن تكون هذه الشكوى يوم القيامة، وأن الفعل (وقال) فعل ماضٍ، لكنه يدلّ على تحقق ما سيقع في المستقبل، إنزالاً لمنزلة

ما سيقع حتمًا بمنزلة ما وقع فعلاً، وهذا ما يستفاد من السياق العام للآية إذ يقول سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿ [سورة الفرقان، الآيات: ٢٨ - ٣٠].

والروايات تؤكد مثل ذلك أيضًا، وتندد بأولئك الذين يهجرون القرآن.

فقد ورد عن الفضل بن شاذان أنه سمع الإمام الرضا (عليه السلام) يقول مرّة بعد مرّة: «إِنْ قَالَ: فَلِمَ أُمِرُوا بِالْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ؟ قِيلَ: لِثَلَا يَكُونَ الْقُرْآنَ مَهْجُورًا مُضِيْعًا وَلِيَكُونَ مَحْفُوظًا فَلَا يَضْمَحَلُّ وَلَا يُجْهَلُ».

وعن الإمام الباقر (عليه السلام): «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَنَا أَوَّلُ وَافِدٍ عَلَى الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكِتَابُهُ وَأَهْلُ بَيْتِي ثُمَّ أُمَّتِي ثُمَّ أَسْأَلُهُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَبِأَهْلِ بَيْتِي».

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: «السُّورَةُ تَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ قَدْ قَرَأَهَا ثُمَّ تَرْكَهَا فَتَأْتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَتُسَلَّمُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ مَنْ أَنْتِ فَتَقُولُ أَنَا سُورَةٌ كَذَا وَكَذَا فَلَوْ أَنَّكَ تَمَسَّكَتْ بِي وَأَخَذْتَ بِي لَأَنْزَلْتُكَ هَذِهِ الدَّرَجَةَ».

وعن أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) قَالَ: «الْقُرْآنُ عَهْدُ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ فَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَنْظُرَ فِي عَهْدِهِ وَأَنْ يَقْرَأَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ حَمْسِينَ آيَةً».

وهجر القرآن يقابله الاهتمام به، ويمكن ملاحظة الأمر في اتجاهين:

هجر التلاوة والحفظ

هناك فئة من الناس تقبل على القرآن باحترام شديد، فتقرأه في كل حين، وتحاول حفظه ونشره بين الناس، وهذا مصداق واضح على الاهتمام بالقرآن، على العكس من ذلك الذي لا يحترم القرآن، ولا يقرؤه، ولا ينظر فيه، ولا يحفظ منه

شيئاً، وعلى هذا ينبغي أن يكون لدى المسلم برنامج يومي لقراءة القرآن الكريم، وهذا ما كان عليه أبائنا وما ينبغي أن نربي عليه أولادنا، وفي الرواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «مَا يَمْنَعُ التَّاجِرَ مِنْكُمْ الْمَشْغُولَ فِي سُوقِهِ إِذَا رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ أَنْ لَا يَنَامَ حَتَّى يَقْرَأَ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ فَتُكْتَبَ لَهُ مَكَانَ كُلِّ آيَةٍ يَقْرُؤُهَا عَشْرُ حَسَنَاتٍ وَيُمْحَى عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ» وهكذا ينام الإنسان وهو مشغول بذكر الله، كما أن تلك القراءة تساعد على فهم وتدبر ما عاشه اليوم وما يرجوه غداً، والإنسان الذي يمر عليه اليوم والأسبوع دون أن يفتح القرآن أو يستمع له، يعتبر هاجراً للقرآن، والنبى ﷺ يقف في وجهه يوم القيامة قائلاً، لماذا رتبت أولوياتك اليومية من نوم وغذاء وجلسات ومشاهدة وسماع، ولم تخصص للقرآن حصّة من وقتك! لماذا لم تقرأ!! لم تسمع!!

على أن بعض الناس يدّعي أن القراءة دون التدبر لا تفيد شيئاً، فيما كان هؤلاء أن تكون لهم قراءتان للقرآن قراءة طويلة، وقراءة معمّقة، ويستحق القرآن أن نقرأه لأكثر من هدف.

الهجر المعنوي

لعلّ هذا العصر هو من أزهى عصور الاهتمام بالقرآن الكريم، إذ تنوعت مظاهر هذا الاهتمام، واتسعت رقعتها، وتكثفت فاعليتها، فهناك أكثر من (٢٥) إذاعة مختصة ببث تلاوة القرآن، والبرامج المرتبطة به، في كل من: السعودية، إيران، مصر، المغرب، والجزائر، وتونس، اليمن، الأردن، السودان، عمان، الإمارات، الكويت، البحرين.

وأصبحت نسخ المصحف الشريف متوفرة بمختلف اللغات، وبكميات كبيرة، فهناك مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وهو من أكبر المجمعات الطباعية في العالم، يقوم على مساحة قدرها ٠٠٠, ٢٥٠م، ويعمل فيه نحو

ألفي شخص، وتصل الطاقة الإنتاجية للمجمع إلى ١٣ مليون نسخة من مختلف الإصدارات سنويًا، وزادت الكميات التي أنتجها المجمع عن (٣٢٠) مليون نسخة، وبلغت ترجمة معاني القرآن الكريم لـ (٧٨) ترجمة^(١).

وفي هذا العصر برز قراء مبدعون تمكنوا من الأخذ بمجامع القلوب، برقة أصواتهم، وحسن تلاوتهم، كما ظهر الألو ف بل عشرات الألوف من المهتمين بحفظ القرآن الكريم كاملاً، حيث تقام لهم المسابقات في مختلف البلدان الإسلامية.

وهناك آلاف المدارس والمراكز لتعليم القرآن وتحفيظه، وقد انبثقت أخيراً (الهيئة العامة لتحفيظ القرآن) التابعة لرابطة العالم الإسلامي، ولديها برنامج واسع لتحفيظ القرآن يتكفل عددًا من الحلقات والمدارس القرآنية في أكثر من ٦٥ دولة وعدد ٧٢ معهداً قرآنياً متخصصاً، عدد طلابها يتجاوز مئة ألف طالب وطالبة، جاوز عدد الحفظة (٦٣) ألف حافظ وحافضة للقرآن الكريم في مختلف دول العالم^(٢).

إلى جانب مؤسسات ومراكز عديدة تهتم بمجالات مختلفة من شؤون القرآن الكريم، ولا شك أن هذه المظاهر من الاهتمام بكتاب الله العزيز تثلج صدر الإنسان المسلم، وتزيده فخراً واعتزازاً.

لكن السؤال الذي يفرض نفسه: هل تؤدّي هذه الأنشطة والمظاهر - على أهميتها - وظيفة المسلمين ومسؤوليتهم تجاه القرآن؟! وهل يخرجون بها من دائرة شكوى رسول الله ﷺ إلى ربه عن هجر قومه للقرآن؟

(١) صحيفة المدينة، (٣٢٠ مليون نسخة لـ «مجمع طباعة المصحف» بـ ٧٨ لغة) الاثنين ١٣ يوليو ٢٠١٩ م.

(٢) صحيفة الجزيرة، (٦٣ ألف حافظ وحافضة للقرآن الكريم في مختلف دول العالم)، الجمعة ٢١ يونيو

اتخذوا القرآن مهجورًا

أخبر القرآن الكريم أن رسول الله ﷺ يتقدم شاكيًا إلى ربه عن هجر الناس للقرآن، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٣٠] والهجر هو الترك والإعراض، والتعبير بقوله ﴿اتَّخَذُوا﴾ يعني أن الإعراض عن القرآن أصبح منهجية وطريقة معتمدة لديهم.

إن تعامل الإنسان مع أي رسالة تصله يتأثر بمكانة مرسلها في نفسه، فإذا كان المرسل مهمًا لديه، وعزيزًا عليه، تنال عنده أكبر مستوى من الاهتمام، أما إذا كان المرسل عاديًا وغير مهم في نظره، فنصيب رسالته سيكون الإهمال والإعراض.

وكمسلمين، فإننا نعتقد أن القرآن الكريم رسالة من الله إلينا وإلى الناس أجمعين، فكيف يصح لنا إهمال هذه الرسالة التي تفضل علينا بإرسالها خالقنا ورازقنا، ومن بيده حياتنا وموتنا؟!!

والرسالة (القرآن) لا تتضمن أي طلبات لخدمة الرب جلّ وعلا، فهو الغني عن العالمين، وإنما هي نهج نور وهداية، تضيء للإنسان درب حياته، وترشده إلى خيره وسعادته: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٠].

فما هو مبرر الإعراض إذن عن رسالة عظيمة من مصدر عظيم؟!!

مضامين القرآن ومناهجه

إن للقرآن الكريم جانبين: جانب الشكل ويتمثل في ألفاظ وكلمات آياته المجموعة بين دفتي المصحف الشريف، وجانب المضمون ويتمثل في القيم والمناهج والتشريعات التي تحملها آيات القرآن الكريم.

وإذا كانت العناية بصورة القرآن الخارجية ككلمات وألفاظ أمرًا مطلوبًا، من حيث القراءة والحفظ والتلاوة والتفسير والنشر، إلا أنه لا يصح الاكتفاء بذلك عن

مرحلة الاستجابة لمضامين القرآن، بالتزام القيم التي يبشّر بها، وتفعيل المناهج التي يدعو إليها، وتطبيق التشريعات الإلهية التي يطرحها.

بل إن قيمة القراءة والحفظ لآيات القرآن إنما تأتي من قصد الاهتداء بها، وتجسيد معانيها في واقع الحياة. وإذا تجردت تلاوة القرآن وحفظه من جانب الالتزام العملي التطبيقي، فإنها تستلزم سخط الله تعالى وغضبه، وهذا ما تصرح به آيات القرآن، ونصوص الأحاديث والروايات.

إن القرآن يوجه تويحاً عنيفاً للذين يتلون آياته، لكنهم غير ملتزمين بقيم الخير والبر، يقول تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٤٤].

ويذمّ القرآن الكريم أتباع الديانات السابقة الذين يتراشقون فيما بينهم بالاتهامات، ولا يتخلّقون بالتعاليم الأخلاقية التي يقرؤونها في كتبهم المقدسة، يقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١١٣].

إن القرآن الكريم يحمل للبشرية أفضل مشروع للتقدم والسعادة، والأمة التي تتبنى هذا القرآن وتحمله، يجب أن تقدم بواقعها العملي المجسّد لمفاهيم القرآن، نموذجاً مثالياً يستقطب سائر الأمم، ويجتذبها نحو منهج القرآن. لكن المؤسف حقاً هو المسافة الكبيرة الفاصلة بين واقع الأمة وهدى القرآن العظيم، فهي تعيش حياة التخلف والشقاء في الكثير من الجوانب، دون أن تستفيد من نور القرآن، وأشعته الهادية، مما يجعلها شبيهة بما حكاها القرآن الكريم عن اليهود، الذين أنزل الله تعالى عليهم التوراة، لكنهم لم يتحملوا مسؤوليتهم تجاهها. يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [سورة الجمعة، الآية: ٥].

وما عسى أن يستفيد الحمار من حمله لأسفار العلم والمعرفة، وهو لا يمتلك

قابلية الفهم، ولا إمكانية الاستفادة؟! كذلك هو حال الأمة التي تحمل أفضل الكتب الإلهية، والرسالات السماوية، لكنها لا تتوفر لديها إرادة الالتزام والتطبيق.

ويتحدث القرآن عمّن تتلى عليه آيات القرآن، لكنه لا يستجيب لها، ولا يكتف حياته وفق هديها، بل يستمر على منهجه الخطأ، وطريقه المنحرف، كأن صوت السماء لم يبلغ سمعه، أو كأن في أذنه صممًا يمنعه من السماع، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [سورة لقمان، الآية: ٧].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [سورة الجاثية، الآية: ٨]، صحيح أن هذه الآيات وردت في سياق الحديث عن الكافرين الذين رفضوا قبول الإسلام، لكنها تتحدث عن موقف سيئ في التعامل مع آيات الذكر الحكيم، بتجاهلها والإصرار على مخالفتها، والمتسم بهذه الصفة يستحق عذاب الله الأليم، وإن كان يصنّف نفسه ضمن المسلمين والمؤمنين.

أما الأحاديث والروايات التي تحذّر من إهمال تطبيق القرآن، والاكتفاء بمظاهر الاهتمام به، فهي كثيرة جدًا، نذكر منها بعض النماذج:

أورد ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ عن ابن عباس وعن عبد الله بن مسعود قالاً: حَقَّ اتِّبَاعِهِ^(١).

وعن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «ليس القرآن بالتلاوة، ولا العلم بالرواية، ولكن القرآن بالهداية، والعلم بالدراية»^(٢).

(١) إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي. تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٢) علاء الدين علي المتقي، كنز العمال. حديث ٢٤٦٢.

وعن ابن عمر عنه رضي الله عنه: «اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فليست تقرأه»^(١).
 وكم هو مرعب هذا الحديث المروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كم من قارئ القرآن والقرآن يلعنه»^(٢) لكنه يقرّر حقيقة واضحة، فمن يقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [سورة هود، الآية: ١٨]، وهو يمارس الظلم، ومن يقرأ قوله تعالى: ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الكَاذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٦١]، وهو يتعمد الكذب، فذلك وأمثاله مصداق للحديث الشريف.

ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٢١]. قال عليه السلام: يَرْتَلُونَ آيَاتِهِ، وَيَتَفَقَّهُونَ بِهِ، وَيَعْمَلُونَ بِأَحْكَامِهِ، وَيَرْجُونَ وَعْدَهُ، وَيَخَافُونَ وَعِيدَهُ، وَيَعْتَبِرُونَ بِقِصَصِهِ، وَيَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِهِ، وَيَتْتَهُونَ بِنَوَاهِيهِ، مَا هُوَ وَاللَّهِ حَفِظَ آيَاتِهِ وَدَرَسَ حُرُوفَهُ، وَتِلَاوَةَ سُورِهِ وَدَرَسَ أَعْشَارِهِ وَأَحْمَاسِهِ، حَفِظُوا حُرُوفَهُ وَأَضَاعُوا حُدُودَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ تَدَبُّرُ آيَاتِهِ وَالْعَمَلُ بِأَرْكَانِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾^(٣).

إن قوله عليه السلام: (حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده) كلمة عميقة، تضع حداً فاصلاً بين مجرد الاهتمام بمظاهر القرآن، وبين الالتزام بقيمه ومناهجه.

برنامج حياة

ليس القرآن مجرد نصّ أدبيّ يستمتع الإنسان بقراءته، ولا هو مجرد معلم تراثي، يحنّ الإنسان للاطلاع عليه، وليس مجموعة من الأوراد والأذكار الروحية يتبرك الإنسان بتلاوتها، إنه فوق ذلك كله رسالة هداية، وبرنامج حياة، إنه دستور عمل،

(١) كنز العمال. حديث ٢٧٧٦.

(٢) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار. ج ٨٩، ص ١٨٥.

(٣) ورام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورام)، ج ٢، ص ٢٣٦.

ومشروع بناء وإصلاح.

وعلى المسلم أن يتعامل مع كل آية قرآنية باعتبارها دعوة عمل، وقرار تكليف، فيصيغ حياته، ويكيّف واقعه على ضوء هدي القرآن وتوجيهاته.

والاهتمام المطلوب من قبل الأمة بالقرآن الكريم: هو تحكيمه في شؤون الحياة، والاستجابة لدعوته، وتطبيق مناهجه وتشريعاته في مختلف المجالات، أما إذا أعرضت الأمة عن مناهج القرآن، وغابت قيمه عن أجواء حياتها، واستبدلت بأحكامه قوانين أخرى، فإن ذلك هو مصداق اتخاذ القرآن مهجوراً، ولا يشفع للأمة حينئذٍ أمام الله تعالى اهتمامها الشكلي الظاهري بالقرآن.

كما لا تستفيد الأمة من عطاء القرآن الحقيقي، إذا لم تأخذ بهديه عملياً، ولم تجعل آياته في مورد التنفيذ والتطبيق.

ولو تأملنا واقع الأمة اليوم، ودرسناه على ضوء القيم والمعايير التي تنادي بها آيات القرآن الكريم، لوجدنا عمق الهوة الفاصلة، والبون الشاسع، بين واقع الأمة المعيش ومبادئ القرآن العظيمة.

النظر في كتاب الكون

ومن أوائل المفارقات التي تصدم المتأمل بين واقع الأمة ودعوة القرآن، التعامل مع الكون والطبيعة، حيث تركّز أكثر آيات القرآن الكريم على الدعوة إلى النظر في كتاب الكون، واستكشاف أسرارها، ومعرفة السنن والقوانين التي تحكم حركته.

إن عددًا كبيراً من سور القرآن الكريم تحمل أسماء لظواهر طبيعية، ولموجودات كونية، وفي ذلك إشارة واضحة للاهتمام بقضايا الطبيعة والكون.

حيث نجد من أسماء سور القرآن مثلاً: البقرة، الأنعام، الرعد، النحل، الكهف، النور، النمل، العنكبوت، الدخان، الطور، النجم، القمر، الحديد، الجن، الإنسان،

التكوير، الانفطار، الانشقاق، البروج، الفجر، الشمس، الليل، الضحى، التين، العلق، العصر، الفيل، الفلق، الناس.

ونجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تأمر الإنسان بالنظر والتأمل في أمور الطبيعة والكون، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [سورة عبس، الآيات: ٢٤-٢٧]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [سورة الطارق، الآيات: ٥-٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة يونس، الآية: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [سورة الغاشية، الآيات: ١٧-٢٠].

هذا التوجيه المكثف في القرآن الكريم نحو الطبيعة والكون، يستهدف تركيز الإيمان بتوحيد الخالق وعظمته أولاً، وانطلاق الإنسان نحو عمارة الأرض، واستثمار خيرات الكون ثانياً.

فالإنسان خليفة الله في الكون، ومطلوب منه عمارة الأرض، وكل ما في الحياة من قوى وإمكانات مهياة لاستفادة الإنسان وخدمته، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة الجاثية، الآية: ١٣].

هذه دعوة القرآن، فأين واقع المسلمين منها؟! وما مدى توجههم لعلوم الطبيعة والكون؟! وما مستوى إنجازاتهم العلمية والعملية؟!!

أليس مؤلماً أن أمم الأرض تتسابق نحو المعرفة والعلم، وتحقق المزيد من الاكتشافات والاختراعات، وتنجز الكثير من التقدم العلمي والتكنولوجي، بينما تراوح أمة القرآن مكانها على هامش حركة الحضارة والعلم؟!!

هذه الأمة التي يبدأ قرآنها بالدعوة إلى المعرفة: ﴿اقْرَأْ﴾، وتركز أكثر آياته على

النظر في كتاب الكون، كيف تعيش في أحوال الجهل والتخلف، وتصنّف ضمن قائمة الدول النامية، والعالم الثالث؟!

إن الإحصائيات والأرقام التي تتحدث عن مستوى البحث العلمي في العالم العربي والإسلامي، قياسًا إلى واقع العلم والتقدم لدى الأمم الأخرى، لتكشف عن تخلف عميق.

تشير بعض الإحصاءات إلى أن القوى البشرية التي تعمل في البحث العلمي في الوطن العربي ١٣٦ باحثًا لكل مليون شخص، بينما يبلغ العدد في اليابان ٥ آلاف باحث، والولايات المتحدة ٤٣٧٤ باحثًا، وروسيا ٣٤٢٥، والاتحاد الأوروبي ٢٤٣٩ باحثًا لكل مليون شخص.

وفيما يتعلق بالإنتاج والنشر العلمي، أفادت بعض الدراسات بأن نصيب بعض الدول مثل الولايات المتحدة الأمريكية يبلغ ٣٥٪ من البحوث العلمية المنشورة عالميًا، في حين لا يتعدى نصيب الدول العربية مجتمعة أقل من ١٪ من هذا النشر الدولي العلمي^(١).

ويوجد في الدول العربية مجتمعة ٥٨٠ مركزًا تمثل ما نسبته ٤٩, ٧٪ من إجمالي المراكز في العالم التي يبلغ عددها ٨١٦٢ مركزًا، بل خلت قائمة الدول الخمسة والعشرين التي لديها أكبر عدد من المراكز من الدول العربية في حين حلت إسرائيل في المرتبة الـ ١٩ على هذه القائمة.

ومن حيث المخصصات المالية للبحث العلمي، جاءت المخصصات العربية متواضعة للغاية، حيث بلغت في مجملها ٧, ١ مليار دولار أي ما نسبته ٣, ٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي، فيما تنفق إسرائيل على البحث العلمي ما نسبته ٧, ٤٪ من ناتجها الإجمالي، وتنفق السويد ما نسبته ٣, ٣٪ وتنفق سويسرا واليابان ما نسبته

(١) وكالة الأنباء السعودية ١٣ ذو القعدة ١٤٤٠ هـ <https://www.spa.gov.sa/1947407>

٧, ٢٪ من الناتج المحلي الإجمالي^(١).

لقد انشغل المسلمون بالتغني بأمجاد الماضي، وبالسجالات والخلافات المذهبية، وبالاهتمامات القشرية، غير مكثرين بندايات القرآن الصارخة، ودعوته المكثفة، نحو التوجه لعلوم الطبيعة والحياة، مع أنهم يسمعون تلك الآيات من إذاعات القرآن، ومن المقرئين المجيدين، وفي مختلف المجالس والمناسبات، أليس هذا مصداقاً لهجر القرآن على صعيد العمل والتطبيق؟!!

أنظمة العلاقات الاجتماعية

تنظيم العلاقات بين الناس على أساس العدل والإحسان، هو من أهم أهداف نزول القرآن وجميع الرسالات السماوية، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [سورة الحديد، الآية: ٢٥].

لذلك ركزت آيات القرآن الكريم على هذا الجانب، وأكدت على مبادئ أساس، يجب أن يلتزم بها الإنسان في علاقاته مع أخيه الإنسان، كأفراد ومجتمعات، وهي مبادئ تنطلق من الإقرار بوحدة النوع البشري، وتساوي أفراد في القيمة والاعتبار، وتمتعهم بالكرامة الإنسانية، واحترام حرية الإنسان، وحفظ حقوقه المعنوية والمادية.

إن سلامة العلاقات بين أفراد المجتمع، وبين شرائحه وقواه المختلفة، ثم بين المجتمع وسائر المجتمعات، ضمن الأسرة الإنسانية، يشكل هدفاً أساساً، ومقصداً رئيساً لآيات القرآن وشرائع الدين.

من هنا تناولت نسبة كبيرة من الآيات القرآنية قضايا العلاقات الاجتماعية، كمنهج عام وكتشريعات جزئية.

(١) البحث العلمي مفتاح التنمية، موقع آراء حول الخليج، <http://araa.sa/index.php?view=arti->

لقد أكد القرآن الكريم على مبدأ التعارف والاحترام المتبادل بين الأمم والحضارات البشرية، فالعلاقة بينها ليست علاقة صراع وصدام، بل علاقة تعارف وتعايش وحوار، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.

ووجه القرآن أتباعه إلى انتهاج سياسة العدل والإحسان تجاه المجتمعات الأخرى، المختلفة دينياً، ما دامت مسالمة غير معادية، يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة، الآية: ٨].

ونهى عن الإساءة إلى الآخرين، وتجريح مشاعرهم، حتى على مستوى الحديث والكلام، وفي غمرة النقاش الديني معهم، يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٤٦]، ويقول تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [سورة البقرة، الآية: ٨٣]، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٨٥].

وفي داخل المجتمع الإسلامي حذر من الخصومة والنزاع، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٤٦]، وأمر بالتعاون والتكافل، يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢].

ومنع القرآن من الاستبداد، ودعا إلى الشورى ومشاركة الناس في بحث شؤونهم وقضاياهم. يقول تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٣٨]،

ونهى القرآن الكريم عن اتهام الناس في أديانهم، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٩٤].

وحذر القرآن في آيات عديدة من التجاوز على أي حق مادي أو معنوي، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٧٨].

لذا يفترض في الأمة التي تحتضن القرآن أن تعيش أفضل استقرار اجتماعي،

بالاتزام بمبادئ العدل والحرية، واحترام الكرامة وحفظ الحقوق. لكن نظرة فاحصة لأوضاع الأمة تكشف ما تعانيه معظم مجتمعاتها من فقدان الاستقرار الاجتماعي، بينما في المقابل تنعم المجتمعات الأخرى بنوع من الاستقرار، نتيجة لقبول التعددية، واحترام الرأي الآخر، والمشاركة في الأمور العامة.

إن القرآن الكريم يهتف بوحدة الأمة، وتتلى آيات الدعوة إلى الوحدة على مسامع المسلمين ليلاً ونهاراً، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٤٦]، وأمثالها من الآيات الكريمة.

فلماذا تعيش الأمة في كثير من بلدانها حالات التفرقة والاضطراب الداخلي؟ بينما يتعايش الأوروبيون بلغاتهم المختلفة، وقومياتهم المتعددة، ومذاهبهم المتباينة، ومصالحهم السياسية والاقتصادية المتنافسة، وهم الآن يوثقون عرى وحدتهم عبر إطار الاتحاد الأوروبي، الذي يتكامل يوماً بعد آخر، ووصل عدد الدول فيه إلى ثمان وعشرين دولة أوروبية.

إن الواقع السيئ الذي تعيشه الأمة في مجال اضطراب علاقاتها الداخلية، ناتج عن تجاهلها وإهمالها للمبادئ العظيمة التي أرساها القرآن في تنظيم العلاقات الاجتماعية، وذلك مصداق واضح من مصاديق اتخاذ القرآن مهجوراً.



القرآن شفاء



وصف القرآن نفسه بأنه شفاء لما في الصدور، وعندما يذكر الشفاء يتبادر إلى الذهن موضوع المرض؛ لأنَّ الشفاء إنما يعني تجاوز حالة المرض والألم، فعندما يقال شُفِيَ فلان فهذا يعني أنه كان مريضًا.

وإذا كان القرآن الكريم يعتبر نفسه شفاءً، فهذا يعني أنه ينبىء عن افتراض إصابة نفوس أبناء البشر بالأمراض، كما الجسم يصاب بالمرض.

إنَّ مرض الجسم يعني وجود خلل في جهاز أو عضو من أعضائه، فيمنع هذا العضو من أداء دوره بشكل طبيعي، ينتج عن ذلك مضاعفات وآلام وتعويق، وحينما يحصل المرض في جسم الإنسان فإنه يندفع لمعالجته؛ لأن بقاءه يسبب له مشاكل، كما أن إبقاءه دون علاج يرشح المرض للتطور والزيادة.

ومثل هذا تصاب به النفس، فالنفس هي: مجموعة المشاعر والعواطف والغرائز الموجودة عند الإنسان، وطريقة تعامله معها، وإشباعه لها، فكلَّ غريزة من غرائز الإنسان، وكلَّ عاطفة من عواطفه، وكلَّ جانب من جوانبه، يؤدى دورًا مهمًا في تكوين نفسيته، وما انتظام حياة الإنسان إلا بانتظام هذه الغرائز، وأداء كلِّ واحدة دورها الطبيعي الذي خلقت من أجله.

والمشكلة في الجانب الروحي أن كثيرًا من أعراضه أمراضه يصعب استشعارها،

لدرجة أن الإنسان يمارس حياته وكأنه إنسان طبيعي سوي، وهو يحمل في طوايا تلك النفس أخطر الأمراض وأخطرها على نفسه وعلى الإنسانية أجمع.

المرض النفسي ربما يبدأ بسيطاً، لكنه يتضخم حتى يفقد الإنسان توازنه، ويسبب له التعويق في تعاطيه مع ربه، ومع نفسه ومع الناس، وعلى هذا ينبغي علاج النفس، كما نعالج خلل البدن، لئلا يزداد ويستفحل، ومن ثم يعيق مسيرة حياة الإنسان السوي على هذه الأرض.

وربما كان هذا الأمر بيّناً واضحاً لدى بني البشر، لكن السؤال المحير: كيف نعالج هذه الأمراض النفسية؟

لقد قدّم الإنسان كثيراً من الضحايا والتجارب حتى وصل إلى ما هو عليه الآن من تكنولوجيا الطب وتقنيته، وصار له في المجال الجسمي أطباؤه وصيادته ومستشفياته ومصحاته.. وتمكّن من اكتشاف ومعالجة كثير من الأمراض التي كانت تخفى على الأطباء بالأمس، أو تتعذر عليهم معالجتها.

وكذلك الأمراض النفسية تحتاج للعلاج، ولو ترك الإنسان وعقله وفطرته، فإنه قد يصل إلى الحلّ، لكنه سيدفع من أجل ذلك الكثير الكثير من المعاناة، ويعيش التخبط لزمان طويل.

وما يزيد الأمر خطورة أن الأمراض الجسمية ليس هناك مراكز قوى ومصالح - في الغالب - تسعى للإطاحة بجسم الإنسان وتعييقه، كما في مراكز القوى التي تكرر جهودها لتخدير الشعوب، والعبث بنفوسهم وعقولهم، فاقتصر الله الخالق سبحانه للإنسانية العلاج، للخلاص من أمراضهم النفسية والروحية، بهذا الهدى الإلهي، الذي جاء في آخر صورة منه بعد سلسلة الأنبياء والمرسلين، متمثلاً في القرآن الكريم.

ولهذا جاء التعبير القرآني ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ

لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿[سورة يونس، الآية: ٥٧]، ليكون خطاباً لكل البشر الذين يتعرضون لأخطار الأمراض النفسية والروحية ﴿قَدْ جَاءَ تَكْمٌ﴾ أي من أجلكم وقصدًا لكم.

مراحل التربية

ثم جاءت الآية الشريفة تحكي مراحل التربية والتزكية^(١):

المرحلة الأولى: مرحلة الموعدة الحسنة والنصيحة ﴿مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾
المرحلة الثانية: تطهير الروح من الرذائل والنقائص ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾
والمرحلة الثالثة: الهداية إلى المعارف الحقة والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة ﴿وَهُدًى﴾

المرحلة الرابعة: هي مرحلة الاستقرار في الرحمة والنعمة والسعادة ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «القرآن هو الدواء»^(٢) دواء لأمراض النفس والآفات الروحية.

ويقول الإمام عليّ ؑ في خطبته عن القرآن: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَعْشُ وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ زِيَادَةٍ فِي هُدًى أَوْ نُقْصَانٍ مِّنْ عَمَى وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنَى فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأَوَائِكُمْ فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِّنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ»^(٣).

(١) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل، ج ٦، ص ٣٥٣ (بتصرف).

(٢) كنز العمال، ج ١، ص ٥١٧، حديث ٢٣١٠، وأيضاً بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ٦٧، حديث ٤.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.



القرآن موعظة



الموعظة من الوعظ، والوعظ كلمة تدلّ على التخويف، وقيل هو تذكيرك للإنسان بالخير ونحوه مما يرقّ له قلبه.

وقد وصف الله القرآن بأنه موعظة، يقول تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٨].

ومن خلال التتبع لموارد لفظ الموعظة في القرآن الكريم، نلاحظ أنها استعملت في مخاطبة وجدان الإنسان وأحاسيسه ومشاعره.

والخطابات التي توجّه للإنسان عادة ثلاثة أنواع:

- خطاب للعقل، وهو الكلام العلمي المنطقي.
- وخطاب للغرائز والشهوات، لإثارها كما في الأغاني الهابطة والأفلام الخليعة.
- وخطاب للوجدان والأحاسيس الخيرة، وهذه هي الموعظة.

الموعظة

والموعظة وإن استعانت بالخطاب العلمي، لكنها أقرب إلى النفس والوجدان؛

لأنّ الناس في أغلبهم تُحرّكهم عواطفهم وشهواتهم، رغم معارفهم العلمية، لكن القليل من الناس من يمتلك الإرادة لتطبيق ما يعرف.

ومن هنا تؤدي الموعدة في المجال الديني دورًا كبيرًا، والقرآن الكريم يقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [سورة النحل، الآية: ١٢٥] فبينما تشير الحكمة إلى مخاطبة العقل، واستخدام الدليل المناسب للإثبات والنفي، ووضع الشيء في موضعه، تخاطب الموعدة الحسنة الوجدان والضمير بالطريقة المؤثرة الجذابة.

ونقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان، الآية: ١٣] فهو يستثير أحاسيسه الخيرة ويوقظها.

وفي العلاقات العائلية يقول القرآن: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤]، أي خاطبوهن بالوجدان والضمير إذا تعذر التفاهم العقلي الصرف.

والله سبحانه يأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالتخاطب مع المنافقين وغير الصالحين، يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٦٣] فأولئك ما كانت تنقصهم المعرفة بحقيقة الدين ومكانة النبي صلى الله عليه وآله، لكن الغلبة عندهم للتوجهات المصلحية، وما يحتاجونه هو تحذيرهم من مغبة الانحراف وسوء العواقب.

ونحن في حياتنا العامة بحاجة إلى موعظة، ونذكر هنا بأن الخطاب الديني لا ينبغي أن يتمحّض للجانب العلمي - كما يطلبه بعض الناس من الخطباء، أو كما هو الحال في المجال الأكاديمي الجامعي - في المجال الديني ينبغي أن يُذكر فيه بتقوى الله، وبالواجبات الدينية، وبالمسؤوليات الخاصة والعامة، عبر الحقائق العلمية

والمعرفية، وعبر مخاطبة الوجدان والأحاسيس النبيلة الخيرة لدى الإنسان، بدون إفراط ولا تفريط، لهذا يقول الإمام عليّ عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام: «أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ»^(١).

ولو راجعنا تراجم مراجع الدين وكبار العلماء في الحوزات العلمية، لوجدنا كثيراً من الفقهاء يطلبون من الخطباء والأولياء أن يعظوهم ويستشيروا أحاسيسهم، فهل هذا الخطيب يضيف إلى معلومات الفقيه والمرجع شيئاً؟! لكنه حينما يذكر لهم كلمات رسول الله صلى الله عليه وآله، وخطب أمير المؤمنين عليه السلام، ومواقف أهل البيت عليهم السلام، يذكرهم بمسؤولياتهم، وبحساب الله ومراقبته لهم، فهذه موعظة ينبغي أن يستفيد منها الإنسان، وينبغي ألا تخلو حياتنا منها على كل حال.

والقرآن الكريم: «أَبْلَغُ الْمَوْعِظَةِ»^(٢) كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو وإن احتوى حقائق علمية في مختلف المجالات، لكنه في جانبه الأكبر موعظة تخاطب الوجدان والضمير، ويذكر الإنسان بضعفه وحاجته إلى الله سبحانه وتعالى، ويذكر الإنسان بمصيره، وأنه سوف يموت ويفنى، ويذكره بالمسؤولية التي يحملها على عاتقه، وأن كل أعماله وتصرفاته محسوبة عليه، وأنه محاسب عليها يوم القيامة، ويذكره بالمصير الأخروي والجنة والنار والثواب والعقاب.

هذا التذكير الدائم المتواصل ينبغي لقارئ القرآن أن يتفاعل معه، وألا يمر عليه مروراً سريعاً، ولا يقرأ آيات العذاب مثلاً وهو منصرف عنها بوجدانه وأحاسيسه، فيضحك ويهزأ وكأنها لا تعنيه، بل ينبغي لنا أن نتأمل القرآن بوجداننا ومشاعرنا، يقول تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكِ اللَّهُ يَهْدِي بِهٖ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٢٣].

(١) نهج البلاغة، خطبة ٣١.

(٢) الشيخ الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٤٠٢.

حينما تمرّ على أيّ آية من آيات القرآن انفتح عليها نفسياً، فهي تخاطب ضميرك ووجدانك، لا تقرأ القرآن كما تقرأ كتاباً علمياً يضيف إلى معلوماتك معلومة جديدة، وإنما تقرؤه ككتاب موعظة يخاطب وجدانك وضميرك، ويرجعك إلى حقيقتك، ويضعك أمام مسؤوليتك، هذا ما يجب أن نتبه إليه في قراءتنا للقرآن الكريم، وهذا ما يجب أن يحافظ عليه الخطاب الديني بشكل عام؛ لأنّ الخطاب الديني لا يتخاطب مع الجانب العقلي فقط، وإنما يمزجه مع الخطاب الوجداني لدى الناس، ومن يراجع القرآن الكريم يجده يصوغ خطابه العلمية بطريقة وجدانية فطرية، وما على الإنسان إلا أن يفسح لها المجال لتلج إلى نفسه وتتغلغل فيها.



الشباب والعودة إلى القرآن

العودة إلى القرآن هو خلاص البشرية من البؤس والشقاء الذي تعانیه، رغم تقدمها المادي التكنولوجي الهائل.

والعودة إلى القرآن هو سبيل الأمة الإسلامية للعزة والكرامة، وتجاوز حالة التخلف الحضاري الشامل.

فمن أين تنطلق رحلة العودة إلى كتاب الله؟ ومن هي الفئة التي تقود مسيرتها؟ حينما هبطت آيات الذكر الحكيم لأول مرة على نبينا الأعظم محمد ﷺ، فإن قلوب الشباب هي التي احتضنت القرآن، وألستهم هي التي أوصلته إلى المسامع، وسواعدهم خاضت معارك الجهاد لتثبيت منهج القرآن في الحياة.

فأول من شنفت آيات القرآن سمعه من رسول الله، كان شاباً يافعاً في أول سنوات شبابه، هو علي بن أبي طالب، الذي استوعب القرآن آية آية وحرفاً حرفاً كما يقول ﷺ: «سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لو سألتُموني عن آية آية، لأخبرتكم بوقت نزولها وفي من نزلت، وأنباتكم بناسخها من منسوخها، وخاصها من عامها، ومحكمها من متشابها، ومكيها من مدنيها»^(١).

(١) الشيخ المفيد: الارشاد، ج ١، ص ٣٥.

ويقول ﷺ في كلمة أخرى: «إِنِّي لَأَعْرِفُ نَاسِحَهُ وَ مَنُوسِحَهُ وَ مُحَكَّمَهُ وَ مُتَشَابِهَهُ وَ فَضْلَهُ مِنْ وَصْلِهِ وَ حُرُوفَهُ مِنْ مَعَانِيهِ وَ اللَّهُ مَا حَرَفُ نَزَلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا وَ أَنَا أَعْرِفُ فِيمَنْ أَنْزَلَ وَ فِي أَيِّ يَوْمٍ نَزَلَ وَ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ نَزَلَ»^(١).

وإلى أن انقطع الوحي بوفاة رسول الله ﷺ واكتمل نزول القرآن، كان علي لا يزال في مرحلة الشباب، حيث لم يتعدَّ عمره الثالثة والثلاثين.

وأول صادق بالقرآن في ملاء قريش، كان شاباً اسمه عبد الله بن مسعود، وهو سادس ستة سبقوا إلى الإسلام، ويتحدث عن موقفه البطولي عُروَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: «كَانَ أَوَّلَ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ.

قَالَ: اجْتَمَعَ يَوْمًا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا سَمِعْتَ قُرَيْشٌ هَذَا الْقُرْآنَ يُجَهِّرُ لَهَا بِهِ قَطُّ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمْوهُ؟

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: أَنَا.

قَالُوا: إِنَّا نَخْشَاهُمْ عَلَيْكَ، إِنَّمَا نُرِيدُ رَجُلًا لَهُ عَشِيرَةٌ يَمْنَعُونَهُ مِنَ الْقَوْمِ إِنْ أَرَادُوهُ.

قَالَ: دَعُونِي، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَمْنَعُنِي.

قَالَ: فَعَدَا ابْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى الْمَقَامَ فِي الضُّحَى، وَقُرَيْشٌ فِي أُنْدِيَّتِهَا فَقَامَ عِنْدَ الْمَقَامِ، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ رَافِعًا صَوْتَهُ: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿﴾ [سورة الرحمن، الآيات: ١-٢].

قَالَ: ثُمَّ اسْتَقْبَلَهَا يَقْرَأُ فِيهَا، قَالَ: وَتَأَمَّلُوا فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: مَا يَقُولُ ابْنُ أُمِّ عَبْدِ؟

قَالَ: ثُمَّ قَالُوا: إِنَّهُ لَيَتْلُو بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ فِي وَجْهِهِ، وَجَعَلَ يَقْرَأُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْلُغَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَدْ أَثَرُوا فِي وَجْهِهِ.

(١) محمد بن الحسن الصفار، بصائر الدرجات: ص ١٣٥ حديث ٣.

قَالُوا: هَذَا الَّذِي خَشِينَا عَلَيْكَ.

قَالَ: مَا كَانَ أَعْدَاءَ اللَّهِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْهُمْ الْآنَ، وَلَكِنْ شِئْتُمْ لِأَعَادِيْنَهُمْ بِمِثْلِهَا.

قَالُوا: حَسْبُكَ فَقَدْ أَسْمَعْتَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ^(١).

كان الشاب ابن مسعود يقرأ القرآن بتفاعل صادق حتى روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْمَعَ الْقُرْآنَ غَضًّا فَلْيَسْمَعْهُ مِنْ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ^(٢)».

وأول من حمل آيات القرآن الكريم إلى المدينة، وعلم أهلها القرآن، وهياها لتكون مهجر الرسول ﷺ ودار الإسلام، هو الشاب المجاهد مصعب بن عمير، والذي اعتنق الإسلام في نضارة شبابه، حيث أخذت آيات القرآن التي سمعها لأول مرة من رسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم بمجامع قلبه، وأحدثت تحولاً فورياً في وجوده ونظرته للحياة.. فتخلى عن حياة الدلال والترف والرخاء، حيث كان أرفه شاب بمكة، كما يقول عنه رسول الله ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُ هَذَا، يَعْنِي مُصْعَبًا، وَمَا بِمَكَّةَ فَتَى مِنْ قُرَيْشٍ أَنْعَمَ عِنْدَ أَبِيهِ نَعِيمًا مِنْهُ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ ذَلِكَ الرَّغْبَةِ فِي الْخَيْرِ، فِي حُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ^(٣)».

لقد انجذب بكله إلى القرآن، وتشربت نفسه مفاهيمه ومعانيه، وارتكزت في ذهنه وقلبه آياته وسوره، فاختره الرسول ﷺ أول سفير للإسلام خارج مكة، وانتدبه ليعلم أهل المدينة القرآن، ويفقههم في الدين.

لقد «كان في أصحاب الرسول ﷺ يومئذٍ من هم أكبر منه سنًا، وأكثر جاهًا، وأقرب من الرسول ﷺ قرابة.. ولكن الرسول ﷺ اختار مصعب الخير، وهو يعلم أنه يكل إليه بأخطر قضايا الساعة، ويلقي إليه بمصير الإسلام في المدينة، التي

(١) سليمان بن أحمد الطبراني: كتاب الأوائل، ص ١١٥.

(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفه الاصحاب، ج ٣، ص ٩٩٠.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ١١٧.

ستكون دار الهجرة، ومنطلق الدعوة»^(١).

تلك كانت أمثلة ونماذج من جيل شاب، وعى القرآن بدء نزوله، وحمله رسالة ومنهج حياة، وأرسى على ضوء هديه أساس الحضارة الإسلامية الشامخة..

أما لماذا كان الشباب هم جيل الاستجابة للقرآن أكثر من غيرهم؟

فذلك للأسباب التالية:

١. أنهم كانوا في مرحلة تفتح الفكر، وتشكيل الوعي، ووجدوا أمامهم أسئلة ملحة عن سر الحياة، وسبب الوجود، وغاية الخلق، ورأوا في القرآن الكريم الهدي والهداية إلى الإجابات الشافية المقنعة، التي تنسجم مع الفطرة وتتوافق مع المنطق وبديهيات العقل.

٢. وكشباب مرهفي المشاعر والأحاسيس، كانوا يتحسسون مساوئ الواقع الجاهلي المعيش، من عبادة أصنام، وفساد أخلاق، ونشوب حروب وفتن، لكنهم لا يعرفون طريقًا للخلاص والعلاج، وجاءت آيات القرآن الحكيم، لتمنحهم البصيرة والنور، ولتضع أقدامهم على طريق النجاح والسلام، فاستقبلوها بإخلاص واندفاع.

٣. كانت قلوبهم أنقى وأصفى من الآخرين، فلأنهم شباب حديثو عهد بالحياة لم تتمكن المصالح من نفوسهم، ولم تسيطر السلبات على أذهانهم، ولم تتكرس المساوئ والمفاسد في سلوكياتهم، فانشدادهم للواقع الفاسد كان محدودًا، مما جعلهم أكثر قدرة على التحرر منه، والإفلات من هيمنته، والانطلاق نحو أفق جديد.

٤. ومرحلة الشباب تخلق عند الإنسان ثقة بالذات، ورغبة في المغامرة، وتطلعًا لمستقبل أفضل، وذلك ما يتناغم مع هدي آيات القرآن الحكيم،

(١) خالد محمد خالد. رجال حول الرسول، ص ٢٧.

ويخلق الأرضية المناسبة للتفاعل معها.

٥. وتوجه الرسول ﷺ لهم وإقباله عليهم، وما كان يفيضه عليهم من حب وحنان، وبيديه لهم من تقدير واحترام، في مجتمع كان السن والمال فيه مناط المكانة والزعامة، كل ذلك جذبهم إلى رسول الله ﷺ، واستقطبهم إلى رسالة الله تعالى، فالخلق العظيم الذي تحلّى به المصطفى ﷺ، وغمر به أولئك الشباب التائبين المهملين في مجتمعهم، هو الذي صنع شخصياتهم القيادية، وفجر مواهبهم وكفاءاتهم وطموحهم نحو العزة والتقدم.

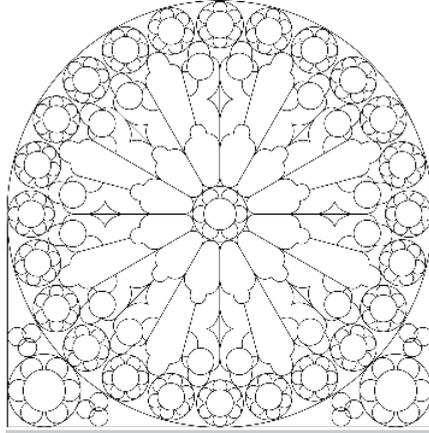
وكما بدأت مسيرة القرآن الكريم على أيدي الشباب، فإن رحلة العودة إلى القرآن ستكون على أيديهم المباركة إن شاء الله.

فمن ينهل من القرآن في فترة شبابه، ويرتشف من نيميره العذب، فإن بناءه النفسي، وتشكيله الفكري، وممارسته السلوكية، ستصاغ على هدي الوحي، فشخصية الإنسان تتبلور معالمها، وتتحدد سماتها في فترة الشباب، فإذا كان فيها قريباً من القرآن، متلمذاً على آياته، فسيكون قرآنيّاً في توجهاته ومسارات حياته.

ورد في رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ - وَهُوَ شَابٌّ مُؤْمِنٌ - اِخْتَلَطَ الْقُرْآنُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ، وَجَعَلَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَكَانَ الْقُرْآنُ حَاجِزًا عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

إن مؤشرات كثيرة تلوح في الأفق، تبشر بمستقبل واعد لأمتنا الإسلامية على أيدي شبابها الأعداء المؤمنين، فهذه اليقظة الإسلامية المباركة، والأنشطة الدينية المنتشرة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، والبرامج القرآنية في تلاوة القرآن وتحفيظه وتعليمه وتفسيره، التي يقبل عليها الشباب الطيبون، كلها بشائر خير على نهضة حضارية قادمة.

(١) الكافي، ج ٢، ص ٦٠٣.



الفصل الثاني

مبادئ التعايش الإنساني

تعيش الأمة الإسلامية في هذا العصر أزمة حادة في العلاقة مع الآخر المختلف دينياً، بسبب ترعرع تيار في وسط الأمة يتبنى الصدام مع الآخر، ويمارس أشد ألوان العنف والإرهاب تجاهه، من الخطف والقتل والسبي، وتدمير المنشآت، واستهداف التجمعات المدنية بالتفجير والقتل والإرهاب، وكل ذلك يتم باسم الإسلام، وتحت رايات ترفع شعاره.

وقد طالت هذه الهجمات مختلف بلدان العالم، وسقط ضحاياها آلاف المدنيين الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال.

صحيح أن المسلمين قد عانوا في الماضي ويلات الاستعمار الأجنبي، وعنف الحملات الصليبية، ولا زالوا يواجهون سياسات الهيمنة الأجنبية على بلدانهم، والدعم المفتوح لعدوهم الرئيس (إسرائيل)، التي تحتل أرض فلسطين، وتمعن في إذلال الشعب الفلسطيني، وتمارس الغطرسة في المنطقة العربية والإسلامية بدعم غربي.

لكن ذلك لا يبرر أبداً ممارسة الإرهاب واستهداف الأبرياء، وافتعال معركة دينية وصدام حضاري، فالسياسات الدولية لا تنطلق من منطلق ديني، ولا ترفع شعارات أيديولوجية، وإنما تدفعها وتحركها المصالح والمطامع.

كما تحتضن المجتمعات الأخرى جاليات إسلامية كبيرة، أصبحت جزءاً من تلك الأوطان، وتمتع بكامل حقوق المواطنة، وتتاح لها فرص الحياة الكريمة، وممارسة شعائرها الدينية، وقد تكون أوضاع تلك الجاليات أفضل من أوضاع بعض المجتمعات الإسلامية في أوطانها الأصلية.

لذلك أصبحت البلدان الغربية مأوىً لكثير من المشردين واللاجئين من البلدان الإسلامية، ومهوىً للباحثين عن حياة كريمة لائقة، ومن أجل الوصول إلى شواطئ تلك البلدان يستهينون بالمخاطر والمصاعب، ويركبون أمواج البحر ويتحملون أهواله، حتى قضى الألوفاً منهم غرقاً وهم في طريق الهجرة إلى الضفة الأخرى.

وكان لا بد وأن تؤدي هذه الممارسات الإرهابية إلى تشويه سمعة الإسلام في أوساط المجتمعات الغربية، وأن يصبح وجود المسلمين مصدر قلق وخوف لتلك الشعوب. مما أعطى الفرصة لنمو توجهات يمينية متطرفة تتبنى التضيق على المسلمين، وتشويه صورة الإسلام وإهانة مقدساته، فهناك من أعلن القيام بحرق القرآن وهناك من رسم كاريكاتورات السخرية والاستهزاء بالنبي محمد ﷺ، وهناك من أنتج أفلاماً للتخويف من الإسلام والمسلمين، وهناك من طالب بطرد المسلمين أو منع دخولهم إلى أمريكا وأوروبا، ضمن الموجة التي يطلق عليها (إسلام فوبيا).

وهكذا تأزمت العلاقة بين الأمة وهذه المجتمعات، ولم يقتصر الأمر على المجتمعات الغربية المسيحية، بل امتد إلى بلدان آسيا وأفريقيا، من المجتمعات الهندوسية والبوذية وغيرها.

في الجانب الآخر فإن العلاقات داخل الأمة وبين مكوناتها الدينية ليست أقل تأزماً من العلاقة مع الخارج، بل هي أشد وأخطر، حيث انفجر الصراع الطائفي بين السنة والشيعة في أكثر من قطر إسلامي، وأدى ذلك إلى حروب ومعارك، وتهجير واغتيالات وتفجيرات انتحارية إرهابية، استهدفت المساجد والحسينيات والأماكن المقدسة والتجمعات الشعبية المختلفة. وتلبدت كل سماء العالم الإسلامي بغيوم

هذا الصراع المقيت.

إن الخطير في تأزم العلاقة مع الآخر الخارجي والداخلي، اتكاء هذه الحالة على تنظير ديني، حيث يروج التيار المتطرّف لثقافة تقوم على المفصلة والصدام مع الآخر، المختلف في الدين أو المذهب أو حتى في بعض الآراء والأفكار ضمن المذهب الواحد، كما رأينا في اقتتال الفصائل (الجهادية) في أفغانستان والصومال وسورية.

هذه الثقافة المتطرفة التي تشرعن الإرهاب والعنف تدعي الانتساب للدين، وتستدل وتستشهد بنصوص قرآنية، وأحاديث نبوية، وأفعال صحابة، وأقوال فقهاء. وبعض ما يستشهد به هؤلاء المتطرفون نصوص مختلفة، قد تكون من وضع وعاظ السلاطين، والرواة المرتزقة للحكام المستبدين، من أجل تبرير بطشهم وديكتاتوريتهم.

وبعض النصوص صحيحة لكن يُساء فهمها وتفسيرها، بما يخدم توجهات التشدد والتطرف.

وقد تكون بعض النصوص موجهة لظروف وزمن محدد، لكنهم يتعاملون معها على أساس الإطلاق الزماني والمكاني، دون أخذ بيئة وملابسات صدور النص بعين الاعتبار.

من هنا تبدو الحاجة ماسة في ظل هذا الوضع الحساس الذي تعيشه الأمة، على صعيد تأزم العلاقات الخارجية والداخلية، إلى ترسيم المبادئ ووضع القواعد التي تنظم العلاقة مع الآخر، والتعايش بين أبناء البشر وإن اختلفت أعراقهم وأديانهم ومذاهبهم.

فلا بدّ من الرجوع إلى القرآن الكريم، وهو المصدر الأساس للعقيدة والتشريع الإسلامي، لمعرفة الرؤية الدينية، والمنهج التشريعي للتعامل مع الآخر الديني.

وتُعنى هذه الورقة المتواضعة باستكشاف الرؤية القرآنية بلغة بينة واضحة، عسى أن تسهم في تحصين وعي جمهور الأمة من التأثير بثقافة التطرف والتشدد.

١ / الشراكة الإنسانية

ما يجب أن يستحضره المؤمن هو أن الآخر مهما كان دينه ومذهبه وعقيدته فهو شريك له في هذه الحياة، ولا بدّ من التعامل معه على هذا الأساس، ذلك أن الله تعالى هو خالق الكون والحياة، وهو مالك كل شيء من ثرواتها وخيراتها، وقد أعطى حق الحياة والاستمتاع بخيراتها لجميع أبناء البشر، من آمن به ومن كفر، فجميع البشر شركاء على نحو التساوي في فرص الاستفادة من إمكانات الوجود.

ولا يحق لمن يدعي الإيمان بالله تعالى أن يصادر حق أحد من عباده ولو كان كافراً، في التمتع بشيء من خيرات الحياة، لأنه بذلك يكون قد خالف إرادة الله، ومارس الظلم والجور.

كان يمكن لله تعالى ألا يخلق من لا يؤمن به، أو أن يسلب نعمة الوجود من الكافرين والعصاة، أو يحرمهم من بعض قدرات الحياة وامتيازاتها، لكن حكمته تعالى شاءت أن تتسع الحياة للجميع، وأن يغمر فضله ونعمه الجميع.

ولنتأمل نماذج من الآيات الكريمة التي تؤكد هذه الحقيقة:

يقول تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، الآيتان: ٢٨-٢٩].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ موجه إلى البشر مؤمنهم وكافرهم، بدليل سياق الآية مع التي قبلها والتي تخاطب الكافرين.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى
وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿سورة لقمان، الآية: ٢٠﴾.

وتشير جملة من الآيات الكريمة إلى أن الله تعالى قد منح الإنسان فرصة الجمع بين متع الدنيا وثواب الآخرة، عن طريق الإيمان به والالتزام بدينه، لكن من يريد حرمان نفسه من ثواب الآخرة، بالكفر بخالقه، والصدّ عن دينه، فإن فرصته في التمتع بملذات الدنيا محفوظة له، يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ [سورة هود، الآية: ١٥].

ويقول تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٢٠].

فنعلم الله تغمر هؤؤلاء المؤمنين وهؤؤلاء الكافرين، ولا يحظر على الكافرين شيء من عطاء الله في هذه الحياة.

هذه الآيات الكريمة وأمثالها كثير في القرآن الكريم، تؤكد على تكافؤ الفرص بين أبناء البشر في هذه الحياة، وأنه لا يحق لأحد أن يصادر حق أحد في الاستمتاع بخيرات الدنيا مهما كان دينه أو عقيدته، مؤمناً كان أو كافراً، لأن ذلك منحة وعطاء إلهي للخلق.

ويمكننا أن نستشهد بقاعدة في الفقه الإسلامي تنبثق من هذه الرؤية وهي قاعدة الإحياء، فمن بادر لأرض مهملة غير مملوكة فأحيها بجهد ونشاطه، ببناء أو زرع أو ما أشبه من طرق الاستفادة، فإنه يتملكها.

يقول الفقهاء: «يجوز لكل أحد إحياء الموات بالأصل، والظاهر أنه يملك به من دون فرق بين كون المحيي مسلماً أو كافراً»^(١).

ولا يشترط عند الجمهور (الحنفية والمالكية والحنابلة) كون المحيي مسلماً.

(١) السيد محمد الروحاني، منهاج الصالحين، مسألة ٦٧٣.

فلا فرق بين المسلم والذمي في الإحياء، لعموم قول النبي ﷺ: «من أحيأ أرضاً ميتة فهي له» ولأن الإحياء أحد أسباب التمليك فاشترك فيه المسلم والذمي كسائر أسباب الملكية^(١).

وهناك قاعدة: «من حاز ملكاً» فمن استولى على شيء غير مملوك لأحد من خيرات الكون، يصبح ملكاً له، مسلماً كان أو غير مسلم.

٢ / الاعتراف والإقرار بوجود الآخر

كما أنك موجود فكذلك الآخر موجود، حيث لا يستطيع أحد إلغاء أحد، وكما لا يرضيك أن يتنكر الآخر لوجودك، فإنه لا يقبل أن تنكر وجوده.

وهنا يجب أن نفرق بين مشروعية الوجود، وحقانية الوجود، فكل صاحب دين أو مذهب يرى الحقانية في عقيدته، وأن المعتقدات الأخرى باطلة.

لكنه لا يملك حق إلغاء المعتقدات الأخرى، فلها وجودها وأتباعها، ومن حقهم أن يعبروا عن ذاتهم الدينية والمذهبية.

وقد حاول بعض من أتباع مختلف الديانات والمذاهب أن يصادروا الوجودات الدينية والمذهبية المخالفة لهم، لكن هذه المحاولات غالباً ما تبوء بالفشل، ولا تنتج إلا الحروب القذرة، والعنف المتبادل باسم الدين.

إن الدين والمعتقد قد يصبح هوية وجودية للمجتمع، لا يتخلى عنها تحت ضغط التهديد، ولا الخضوع لمنطق الأدلة والبراهين.

وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٤٥].

ويروّض القرآن الكريم نفوس المؤمنين ليتعايشوا مع واقع التنوع الديني فهو

(١) د. وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج ٥، ص ٥٥٩.

قدر البشرية إلى يوم القيامة، فلا يتوهمن أحد إمكانية الفصل والحسم بين الديانات في هذه الحياة الدنيا، إذ أنها مهمة مؤجلة إلى يوم القيامة. وتتم بين يدي الله سبحانه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة السجدة، الآية: ٢٥]، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٨].

وتكريسًا لهذا المبدأ يعترف القرآن بوجود أتباع الديانات الأخرى، إلى جانب وجود أتباعه المؤمنين، في إطار هوياتهم الدينية يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة الحج، الآية: ١٧].

٣ / حرية الرأي والمعتقد

غالبًا ما يندفع الإنسان للتبشير برأيه وعقيدته بدافع وجداني، لأنه يؤمن بصحة رأيه، ويرغب أن يشاركه الآخرون الإيمان به، ويكسب المزيد من الثقة والاطمئنان برأيه حين تتسع رقعة المقتنعين به.

وقد يكون الدافع للتبشير بالرأي والمعتقد دافعًا مصلحيًا، حين يكون وسيلة لاستتباع الآخرين، وأخذ موقع التأثير عليهم، والقيادة لهم، بما يحقق أطماع الهيمنة والسيطرة.

وتشجع معظم الديانات أتباعها على التبشير بها ونشر معتقداتها، انطلاقًا من حقانيتها، ولأن ذلك يجلب رضا الرب سبحانه.

وقد يؤدي التبشير بالرأي والمعتقد إلى حالة من الصدام والصراع بين أتباع الديانات والمذاهب والأفكار، وخاصة حين يأخذ منحى الفرض والإكراه.

وهنا يؤكد القرآن الكريم على احترام حرية الرأي والمعتقد، ويرفض أي محاولة

لإكراه الآخرين على تبني معتقد أو قبول رأي. يقول تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٥٦]، ويقول تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس، الآية: ٩٩].

إن الأنبياء الذين بعثهم الله برسالاته وشرائعه، تنحصر مهمتهم في تبيين الدين وتبليغه، ولا يحق لهم أبداً فرض الدين أو إجبار الناس على اعتناقه. يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [سورة الغاشية، الآيتان: ٢١-٢٢] ويقول تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٠].

ويقول تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٢٠].

لقد شاءت إرادة الله وحكمته أن يكون الإنسان في هذه الدنيا حراً في قناعاته وأفكاره، حتى في مبدأ الإيمان بالله تعالى، حيث لم يفرض الله على خلقه الإيمان به إجباراً وإكراهاً، ولم يمنح لأحد حق هذه الوصاية والممارسة.

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [سورة الكهف، الآية: ٢٩].

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس، الآية: ٩٩].

هكذا يؤكد القرآن الكريم احترام حرية الرأي والمعتقد، ولا يسمح للمؤمنين به استخدام العنف والقوة في الدعوة إليه، حتى عنف اللفظ والكلام غير مقبول عند الله كأسلوب للدعوة إلى دينه، يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل، الآية: ١٢٥] ويقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٤٦].

٤ / سيادة العدل وحفظ الحقوق

إن التمايز الديني والمذهبي لا يعطي لأحد الحق في الاستعلاء على الآخر، ومصادرة شيء من حقوقه الإنسانية، أو النيل من كرامته. فاعتقادك بأحقية دينك وبطلان دين الآخر، لا يمنحك مبررًا للتسلط عليه أو امتهان كرامته، ذلك أن الإنسان بما هو إنسان وقبل أي عنوان آخر ديني أو عرقي أو طبقي، له قيمته وكرامته التي يجب أن تحفظ وتتحترم في هذه الحياة، أما في الآخرة فحسابه عند ربه.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [سورة الغاشية، الآية: ٢٥-٢٦]

ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾

[سورة المؤمنون، الآية: ١١٧].

ولتأكيد هذه القيمة الإنسانية تحدث آيات القرآن الكريم عن مكانة الإنسان وخصائصه الفريدة، فهو الذي جعله الله خليفته في الأرض، وجعل تحت تصرفه كل موجودات الكون والحياة، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة لقمان، الآية: ٢٠] وقد خلقه في أحسن تقويم، وأسجد له ملائكته، ومنحه الكرامة والقيمة العالية، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الاسراء، الآية: ٧٠].

كل هذه المكانة والامتيازات للإنسان بما هو إنسان، دون النظر إلى عرقه أو دينه أو عقيدته، كما هو مفاد الإطلاق في الآيات الكريمة، وصحة العقيدة والدين، والالتزام القيمي يضيف إلى صاحبه في المكانة والاعتبار عند الله، وفي ثواب الآخرة، أما في الحياة الدنيا فأبناء البشر يتساوون في تلك الميزات الأساس.

يقول السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره للآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا

بِنِي آدَمَ ﴿﴾: «يظهر أن المراد بالآية بيان حال لعامة البشر مع الغض عما يختص به بعضهم من الكرامة الخاصة الإلهية، والقرب والفضيلة الروحية المحضة، فالكلام يعم المشركين والكفار والفساق»^(١).

وقال الألوسي البغدادي: «﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ذوي كرم، أي شرف ومحاسن لا يحيط بها نطاق الحصر»^(٢).

إن القرآن الكريم يقرر مبدأ كرامة الإنسان لإنسانيته أولاً وقبل كل شيء، فمن أي عرق انحدر، وإلى أي دين وعقيدة انتمى، فهو إنسان له كرامته الذاتية، ويجب أن يتمتع بحقوقه الإنسانية الكاملة.

وانطلاقاً من هذا المبدأ يقرر القرآن الكريم سيادة شرعه: العدل واحترام حقوق الإنسان، كمنهج ونظام للعلاقة بين بني البشر في هذه الحياة. يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [سورة النحل، الآية: ٩٠] ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٨].

والأنبياء إنما بعثهم الله برسالاته وشرائعه ليقوموا بالعدل بين الناس: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [سورة الحديد، الآية: ٢٥].

والعدل شرعة عامة لبني البشر، دون نظر لأعراقهم وأديانهم، هكذا يأمر الله رسوله ﷺ أن يخاطب غير المؤمنين به، يقول تعالى: ﴿وَأْمُرْتُ لِأَعْدَلٍ بَيْنَكُمْ لِلَّهِ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [سورة الشورى، الآية: ١٥].

إن وجود عداوة أو خصومة مع الطرف الآخر لا يبرر الجور عليه، وتخطي حدود العدل في التعامل معه، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ١٥٢.

(٢) السيد محمد شكري الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن، ج ٥، ص ١١٧.

شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾
[سورة المائدة، الآية: ٨].

إنه لا يجوز النيل من أي حق من حقوق أحد من الناس المادية أو المعنوية يقول تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٨٥] وقد تكررت هذه الجملة في ثلاثة موارد من القرآن الكريم.

هذه مبادئ أساسية يقررها القرآن الكريم لتوطيد السلم العالمي، ولتحقيق التعايش بين بني البشر، لكن المؤسف تجاهل هذه المبادئ في أوساط أبناء الأمة الإسلامية، بل سيادة توجهات على النقيض منها تحت عنوان الجهاد، أو الولاء والبراء، أو مواجهة أهل البدع.

وما أحوج ساحة الأمة إلى خطاب ديني واع يبين حقيقة هذه المفاهيم، ومصاديق تطبيقاتها التي يجب ألا تتنافى مع تلك المبادئ الأساسية التي يقررها القرآن الكريم كقواعد حاكمة على سائر التشريعات والأحكام.



لتعارفوا



هذا الوجود البشري الكبير المتنوع في أعراقه، وألوانه، ولغاته وثقافته، يرجع إلى أصل واحد، كما يؤكّد ذلك القرآن الكريم، وكما تؤكّد النظريات العلمية، فأبناء البشر يرجعون إلى أصل واحد، والخالق هو إله واحد وهو الله سبحانه وتعالى، والمكونات الأساس لأبناء البشر متساوية في أصل وجودها، وإن كانت متفاوتة في مستويات استخدامها وتفعيلها، فالجوارح والأعضاء الجسمية واحدة عند أبناء البشر، وكذلك الحال في المكونات الفكرية، والروحية، والنفسية هي متشابهة عند أبناء البشر، لكن التفاوت يحصل في درجة استخدام هذه الأعضاء الجسمية، والقوى الفكرية، والنفسية، فهناك من يُفعل هذه القدرات المادية أو المعنوية أكثر من الآخرين.

هؤلاء البشر كلهم يعودون إلى أصل واحد وخالقهم هو إله واحد، والمقومات الأساس في شخصياتهم واحدة، لكن شاءت حكمة الباري وقدرته جلّ وعلا أن تتنوع الخصائص، وأن تتفاوت المستويات، فالخصائص بين أبناء البشر والمستويات متفاوتة، وهذا له أسبابه الطبيعية.

كيف نشأ التفاوت؟

نشأ الناس بداية في محيط واحد، حيث كان أبو البشر آدم يُشكّل العائلة الإنسانية الأولى، مع زوجته حواء و أولادهما، ومع استمرار التناسل البشري انتشر أبناء آدم في أنحاء مختلفة من الأرض، هذا الانتشار جعل كل مجموعة تعيش ضمن بيئة تختلف عن البيئة الأخرى، هذا الاختلاف البيئي، والجغرافي، في الحياة الطبيعية، انعكس اختلافًا ماديًا وثقافيًا، أشكال حياة الناس قد تختلف في أجواء حارة أو أجواء باردة، في مناطق جبلية أو ساحلية، هذا التفاوت في البيئة الطبيعية التي يعيشها الناس تنعكس اختلافًا على أوضاعهم المادية، واختلافًا في ثقافتهم، فكل جماعة من البشر تكونت لها لغة خاصة وتقاليد وأعراف من وحي ظروفها البيئية والمعيشية، فحصلت تنوعات وتفاوت بين الجماعات البشرية المتناثرة في أصقاع الأرض، وبمرور الوقت أصبحت البشرية تنقسم إلى قبائل وعشائر، وإلى شعوب وأمم، وهذا التنوع لا ينفي الأصل الواحد.

لذلك تتوجه الآية الكريمة في سورة الحجرات بالخطاب إلى أبناء البشر جميعًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٣]، والآيات السابقة لها كانت تخاطب المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، هنا انتقل الخطاب من: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ لأنّ الحديث ليس خاصًا بالمؤمنين، وإنما هو متوجه إلى الناس باعتبارهم الإنساني، بغض النظر عن أديانهم ومعتقداتهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، خطاب عام لكل من ينطبق عليه هذا العنوان، مهما كان لونه، ولغته وعرقه، ودينه، ومذهبه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾، والخطاب من قبل الله سبحانه وتعالى، وفيه إيحاء وتبيين للفلسفة التي تريد الآية أن تصل لها، إنه يمهد ويؤكد أرضية الوحدة بين أبناء البشر، ما دام الخالق واحدًا، وليس هناك أحد من البشر من خلق إليه آخر، ولا يوجد إليه آخر إلا الله سبحانه وتعالى، فالتأكيد على

أن الخالق واحد، من أجل إعداد الأرضية الفكرية والنفسية، لتوطيد العلاقات بين هؤلاء الذين خلقهم إله واحد.

ثم تشير الآية إلى الحكمة في التنوع، وإلى وحدة الأصل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾، وإن الطريقة التي يأتي منها هذا الإنسان من أي لون كان ومن أي دين كان، هي نفس الطريقة التي يأتي منها الإنسان الآخر، فليس هناك إنسان يأتي للحياة بطريقة متميزة مختلفة، والنتيجة إذًا أن الإله واحد، وطريق الخلق إذًا واحدة، ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾، هذا التنوع إنما حصل بإرادة الله تعالى وبحكمته وليس بإرادتكم أنتم.

وفي هذا إيحاء لكل إنسان يريد أن يتصور: بأن كونه من هذه القبيلة، أو من هذه العائلة مدعاة للتميز، وأن كون الآخر من عائلة و قبيلة أخرى سبباً للدونية، هل أنت اخترت انتسابك لهذه القبيلة! وهل ذلك الآخر اختار انتسابه لتلك القبيلة؟ هل أن كل إنسان قبل مجيئه للحياة يعرض عليه معجم القبائل والأنساب ويقال له: اختر القبيلة التي تريد أن تولد منها، أو تكون منتمياً إليها؟ نحن نعرف الآن أن الإنسان في اختياره لتخصصه الدراسي تعرض عليه مختلف الجامعات، وهو يختار الجامعة التي يريد، والتخصص الذي يرغبه، وهو يتحمل مسؤولية اختياره، ونعرف أن مختلف القضايا المكتسبة يكون للإنسان رأي فيها، لكن انتماءك العائلي، والقبلي، والقومي، والعرقي، لا اختيار لك فيه، فلا فخر لك فيه، ولا يشكل نقطة ضعف لك، المسألة ترتبط بالله سبحانه وتعالى.

الشعوب والقبائل

تكلم المفسرون حول المقصود بالشعوب والقبائل، وأيهما أوسع من الآخر، هل أن الشعب أوسع من القبيلة، أو أن القبيلة أوسع من الشعب، لا شأن لنا في هذا الاختلاف، لكن من حيث الفهم المعاصر نجد أن بينهما تداخلاً، يطلق على

كلّ من يعيشون في وطن واحد، تحت ظلّ نظام واحد، بأنه شعب، ويقال الشعب الأمريكي، الشعب الياباني، الشعب السعودي، الشعب العراقي، وهذا الشعب يعتبر إطاراً يستوعب قبائل مختلفة، هنا يبدو الشعب أوسع من القبيلة؛ لكننا في الوقت نفسه نجد أنّ بعض القبائل لها فروع في مختلف الشعوب والأوطان، وعلى المستوى العربي نجد أنّ بعض القبائل لها فرع في العراق، وفرع في سورية، وفرع في السعودية، وفروع في مناطق مختلفة.

نتعارفوا

طبيعة الحياة اقتضت أن تكونوا متنوعين في انتماءاتكم الشعوبية والقبلية، هذا الاختلاف ينعكس اختلافاً في الثقافات، وينبغي أن يكون دافعاً للتعارف.

هذا التنوع هو مظهر من مظاهر القدرة والإبداع الإلهي، كما نجد أنّ الفنان الذي يستطيع أن يصنع مناظر مختلفة متعددة يبرز قدرته بهذا التنوع، إنّ الحديقة التي تكون فيها الألوان متنوعة مدعاة لقيمة أكبر لهذه الحديقة، وهذا الوجود البشري هو مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، لذلك تعتبر آيات أخرى من القرآن الكريم اختلاف الألسن والألوان من آيات الله سبحانه وتعالى، ومظهر من مظاهر العظمة الإلهية يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الروم، الآية: ٢٢].

قواعد التعارف وآفاقه

التعارف ينبثق من المعرفة، الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان خاصية المعرفة، وقيمه تأتي من تفعيله لهذه الخصيصة، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [سورة البقرة، الآيتان: ٣١ - ٣٢].

ميزة آدم كانت قابلية المعرفة والعلم، وبذلك فضله الله على الملائكة، وأمر

الملائكة بأن يسجدوا له، والتعارف ينبثق من خاصية المعرفة.

إنّ الإنسان القادر على المعرفة، ينبغي له أن يستفيد من التنوع البشري في كسب المعرفة، وعلينا أن نتأمل في كلمة ﴿لِتَعَارَفُوا﴾، يعني أنّ كلّ طرف يتعرف إلى الآخر كحالة متقابلة، ليس تعرّفًا من جهة واحدة فقط، وإنّما من الجهتين، إنّ التعارف قيمة كبيرة في حياة البشر، أنت تنتمي إلى دين، والآخر ينتمي إلى دين آخر، أنت تنتمي إلى مذهب، والآخر ينتمي إلى مذهب آخر، تنتمي إلى ثقافة وهو ينتمي إلى ثقافة أخرى، إلى قبيلة وهو ينتمي إلى قبيلة أخرى، إلى شعب وهو إلى شعب آخر، هذا التنوع فيه تجارب مختلفة، أول ما ينبغي أن تهتم به في حالة التنوع أن تتعرف إلى خصائص وصفات الطرف الآخر، هذا ما يجب أن تسعى إليه.

البعض من الناس تحصل عندهم حالة انطواء على ذواتهم، القومية، أو الدينية، أو الفئوية، لا يكون لديهم سعي للتعرف على الطرف الآخر، وتضييق الدائرة إلى أن يكون أناس ضمن مذهب واحد، لكن لهم مدارس متعددة، فيعزف كلّ طرف عن التعرف إلى ما عند الطرف الآخر.

وفي بعض الأحيان يكون له صورة خطأ عن الطرف الآخر، ينشغل بها، ولا يسعى للتعرف الحقيقي، أنا أرسم في ذهني صورة لصاحب المذهب الآخر، وأكتفي بهذه الصورة، وأزعم أنّ هذا هو الآخر، فأقول: السنة كذا، الإباضية كذا، الشيعة كذا الزيدية كذا، من قال إنّهم كذا؟ أنا أفتعل صورة، أنا أتقبل صورة رسمت ضمن بيئة معينة، ولا أسعى للتعرف الحقيقي، هذه الآية الكريمة تخلق دافعًا لكلّ مؤمن، بأن يتعرف إلى الآخرين، كما هم على حقيقتهم، فإذا تعرّفت إليهم، تتيح لهم الفرصة بأن يتعرفوا إليك، والآية الكريمة تقول: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ يعني - تبادل - المعرفة حتى يتحقق هذا المبدأ وتتحقق هذه القيمة.

ونشير إلى أنّه حتى على المستوى الفردي، بعض الناس لديهم هذا الاهتمام، بأن يتعرفوا إلى الأفراد الآخرين، فإذا جلس في مجلس، وكان إلى جانبه شخص، يندفع

للتعرف إليه، حينما يلتقي شخصًا يتعرف الإنسان إليه. هنالك رواية عن المفضل بن عمر الجعفي قال: دخلتُ على أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام فقال لي: مَنْ صَحْبِكَ؟ فقلتُ: رَجُلٌ مِنْ إِخْوَانِي، قَالَ: فَمَا فَعَلْتَ؟ فقلتُ: مِنْذُ دَخَلْتُ الْمَدِينَةَ لَمْ أَعْرِفْ مَكَانَهُ، فَقَالَ لِي: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ مَنْ صَحِبَ مُؤْمِنًا أَرْبَعِينَ خُطْوَةً سَأَلَهُ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟^(١).

البعض من الناس ليس لديه توجه التعرف إلى الآخرين، بينما هناك بعض الأشخاص عندهم هذا الاهتمام، بل عندهم براعة، بمجرد أن يلتقي شخصًا يتعرف إليه، يكسبه، يتبادل معه المعرفة، ثم يفكر كيف يستثمر هذه العلاقة، نحن بحاجة إلى هذا الخلق الحضاري على مستوى الأفراد، لن نخسر شيئًا بل ستربح ثروة من المعارف والأفكار، والتجارب، جرّب أن تهتم بالتعرف إلى أكبر قدر ممكن من الأشخاص الذين تكون في محيطهم، أو يكونون في محيطك، بسبب أو بآخر، فتجد أمامك آفاقًا مفتوحة.

حينما تسمع عن جماعة معينة، اسعَ للتعرف إليهم: مَنْ هم، ما أفكارهم، ما آراؤهم، ما مواقفهم، اسعَ للتعرف إليهم عبر التواصل المباشر، أو عبر القراءة عنهم، يذكرون أنه في أمريكا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، أقبل الأمريكيون بشغف على مطالعة كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين، وفرغت المكتبات من كل كتاب يرتبط بالإسلام والمسلمين، لماذا؟ لأن الأمريكي يسمع في وسائل الإعلام أن هذه الحادثة حصلت وخلفها إسلام ومسلمون، فيتساءل:

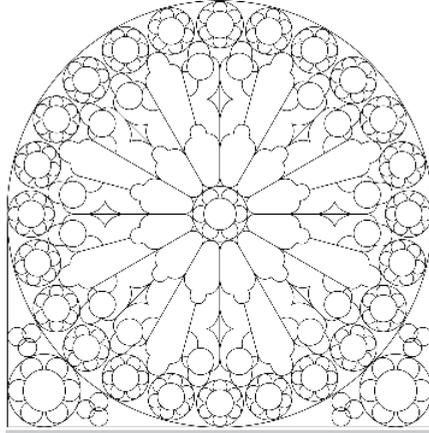
ما هو الإسلام؟ ومن هم المسلمون؟

صار يبحث، يذهب للمكتبة، يشتري كتابًا، والعلماء المسلمون في أمريكا - بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر - يقولون: صرنا ندعى في الجامعات والمراكز

(١) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص ٤١٣، حديث ٧٥.

لإلقاء المحاضرات، وفي ذلك دلالة على أن الناس هناك يبحثون عن المعرفة، بينما نحن - مع الأسف - في كثير من الأحيان نسمع عن جهة، ولا نكلف أنفسنا البحث عنها، ونكتفي بالمعلومات الجاهزة.

إنها قيمة كبيرة يركّزها القرآن الكريم: قيمة التعارف ﴿لِتَعَارَفُوا﴾.



الفصل الثالث

ثقافة الرشيد الاجتماعي

قد نتحدث عن الرشد على مستوى الأفراد، فنلاحظ فرداً رشيداً يميز مصلحته ويحسن التصرف والتدبير، في مقابل فرد ضعيف الرأي، لا يتخذ الموقف المناسب فيما يواجهه من ظروف وأوضاع.

وقد نتحدث عن الرشد على مستوى المجتمعات والجماعات، فهناك مجتمع راشد، ومجتمع يفتقد الرشد والنضج، فكيف نقوم المجتمعات والجماعات على هذا الصعيد؟ وما هي سمات الرشد الاجتماعي؟

في القرآن الحكيم جاء الحديث عن المجتمع الراشد ضمن قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [سورة الحجرات، الآية: ٧].

والآية الكريمة تشير إلى أهم صفة في المجتمع الراشد، وهي الانسجام النفسي والفكري والسلوكي مع المبادئ والقوانين الشرعية.

فالمبدأ الذي يؤمن به المجتمع، تارة يكون مجرد هوية وعنوان، وتارة يؤخذ المبدأ على أساس التلقي من الأسلاف دون وعي واقتناع، وقد يتفاعل المجتمع مع المبدأ على المستوى الروحي النفسي، لكنه من الناحية العقلية الفكرية لديه

تحفظات وإشكالات، وقد يحصل العكس بوجود اقتناع فكري نظري، دون توفّر انشداد روحي نفسي، وقد يكون المبدأ وقوانينه أمراً مفروضاً على ذلك المجتمع لسبب أو لآخر، وكل تلك الحالات تنبئ عن ضعف وخلل في بنية المجتمع وكيانه، حين يؤمن بعقيدة موروثية دون اقتناع، أو يدين بمبدأ لا يلتزم بتطبيق أنظمتها وقوانينه في واقع حياته، أو يخضع لشريعة بالقوة والفرص.

أما المجتمع الراشد الذي تشير إليه الآية الكريمة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ فهو يتمتع بالصفات التالية:

١. حُبَّ العقيدة والمبدأ ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ بما تحمله كلمة الحب من معاني الانجذاب النفسي، والانشداد الروحي.

٢. الوعي بالمبدأ ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي أدركتم بعقولكم صحة منهجكم الإيماني، وأنه الأفضل الذي تزدان به حياتكم.

الردع الذاتي عن المخالفة والانحراف ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْمُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ وهو ناتج عن الصفتين السابقتين، فإذا كان الإنسان محباً لمبدئه، من أعماق نفسه، وواعياً بدينه في فكره وعقله، فإنه بذاته يكره المعصية، وينفر من الخروج عن حدود النظام والقانون، وهكذا فإن الحالة العامة في المجتمع الراشد، هي الالتزام والانضباط بدافع ذاتي، واجتناب المخالفة.

بالطبع حينما ينسب الخالق جلّ وعلا لنفسه التحبيب والتكريه، ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ﴾ و﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ﴾ فإنه لا يعني الإجبار التكويني على ذلك، وإنما المقصود تهيئة الوسائل والظروف المناسبة، والتوفيق للقبول والاستجابة.

ومن خلال الآية الكريمة، وعلى ضوء ما حدد به الفقهاء معنى الرشد، الذي يشترط توفره لإقرار أهلية التعاقد وصلاحيته التصرف عند الإنسان، يمكننا الإشارة إلى أهم سمات وصفات المجتمع الراشد:

١. الوعي والمعرفة :

إذا كان الفقهاء يعتبرون القدرة على تمييز المصلحة، والتفريق بين النافع والضار، هو أول مستويات الرشد، التي يترتب عليها الأثر الشرعي والقانوني، لجهة الاعتراف بأهلية الإنسان واستقلال شخصيته، فيمكننا أن نقبس من ذلك تحديد أول مستويات الرشد الاجتماعي، وهو وعي المجتمع ومعرفة بالأمور والشؤون التي ترتبط بواقعه، ليتمكن من تشخيص مصلحته، والتفريق بين ما ينفعه أو يضره كمجتمع.

إن كثيراً من الناس في المجتمع يستغرقون في هموم الذاتية الشخصية، أو ينشغلون بمسائل جانبية ثانوية، ولا يلتفتون لقضايا مجتمعهم، ولا يعون الظروف والاضاع التي تحوط بآمتهم.

يحدثنا القرآن عن الجماعة الراشدة في العهد الإسلامي الأول، يوم كانوا أقلية في مكة الخاضعة لأجواء الشرك آنذاك، كيف كانوا مهتمين بنتائج معركة بين الروم والفرس، تجري في أدنى أرض الروم وأقرب نقاطها إلى الفرس، ومع هذا البعد الجغرافي، إلا أن المؤمنين في مكة كانوا يتابعون المعركة، وحينما انتصر الفرس المشركون على الروم الكتبيين، تأثر المؤمنون لهزيمة الروم، رغم عدم وجود تواصل أو تحالف بينهم وبينهم، مما يدل على وعي وإدراك بأبعاد تلك الحرب، وآثارها وانعكاساتها، لذلك أنزل الله تعالى سورة كاملة من القرآن باسم سورة «الروم»، تتحدث عن تلك المعركة وعن تفاعل المؤمنين مع نتائجها، ويبشّرهم بتغير المعادلة خلال فترة زمنية وجيزة، حيث سيقتصر الروم في بضع سنين قادمة، يقول تعالى: ﴿الم. * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بضعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الروم، الآيات: ١-٤].

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار دور الشهادة على العالم الذي أناطه الله تعالى

بالمؤمنين ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٤٣]، فإن ذلك يعني ضرورة تطلع المجتمع الإيماني إلى أرفع مستوى من الوعي، يتمكن به من مراقبة التحولات العالمية، والمعادلات الدولية، فضلاً عن وعيه بأوضاعه وقضياه، يقول الإمام علي عليه السلام: «لا بد للعاقل من ثلاث: أن ينظر في شأنه، ويحفظ لسانه، ويعرف زمانه»^(١).

٢. حسن التصرف:

كيف يتصرف المجتمع تجاه الظروف والمشاكل والازمات؟ هل تسوده حالة الاستسلام وانتظار المعجزة من المجهول؟ أم تسيطر عليه الانفعالات والأحاسيس، ويحركه الحماس المجرد عن التخطيط السليم؟ أم يواجه التحديات بتفكير موضوعي، وبرامج حكيمة؟

ويقاس رشد المجتمع ونضجه بما يختار ويسلك من هذه الخيارات، فالانهزام أمام المشكلة، يكشف عن فقد الإرادة وضعف الثقة، بينما الوقوع تحت حالة العاطفة والانفعال، وغياب الحكمة والتعقل، قد يضاعف المشكل ويعمق الأزمة.

وما يقتضيه الرشد هو حسن التصرف، واتخاذ الموقف المناسب في الظروف المناسبة، فقد يستلزم الظرف شدة وقوة، وقد يستدعي حماسة وانفعلاً، وقد يتطلب مرونة واستيعاباً.

وفي سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أروع النماذج والأمثلة لحسن التصرف في الظروف المختلفة، فالمسلمون الأوائل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا كما وصفهم الله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [سورة الفتح، الآية: ٢٩]، والمعارك والغزوات التي خاضوها تكشف عن شجاعتهم وتضحياتهم، لكن هؤلاء الأشداء على الكفار، تقبلوا صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة، بما تضمنته اتفاقية الصلح من شروط لصالح المشركين في ظاهرها

(١) الحسن بن علي بن شعبة الحراني، تحف العقول، ص ١٤٤.

وعلى حساب عزة المسلمين، حتى إن بعض الأصحاب سيطرت عليه حالة الحماس والانفعال واعترض على ما حصل، كما يذكر ابن هشام وسائر المؤرخين أن عمر بن الخطاب أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أأست برسول الله؟ قال: بلى، قال أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني! قال: فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً^(١).

لقد رفض سهيل بن عمرو والمفاوض من قبل قريش أن يكتب في وثيقة الصلح: بسم الله الرحمن الرحيم، وأصرّ أن يكتب بدلها: باسمك اللهم. فوافق الرسول ﷺ على ذلك. ثم اعترض سهيل على كلمة «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قائلاً: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم ابيك فقط: ووافق الرسول على ذلك أيضاً. واشترط سهيل: أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، ومع أنه شرط مجحف إلا أن الرسول ﷺ وافق عليه، وحدث أن جاء أحد المسلمين المضطهدين في مكة، يجر القيود والأغلال لاجئاً إلى معسكر المسلمين، وهو أبو جندل بن سهيل بن عمرو، فقام له أبوه سهيل وضرب وجهه، وطلب من الرسول أن يرده إلى قريش، وأن يرفض لجوءه، فوافق الرسول على ذلك، فصاح أبو جندل: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ مما أثار حماس المسلمين لكن الرسول ﷺ قال له: يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك وللمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً^(٢).

ومع كل ذلك، عدّ الله تعالى هذا الصلح فتحاً مبيناً ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [سورة الفتح، الآية: ١]، لأن نتيجته كانت في الأخير لمصلحة الإسلام، هكذا يجب أن

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج ٣، ص ٣٤٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٤٧.

يتحكم العقل في الموقف، وليس العاطفة المجردة، والمجتمع الراشد هو الذي يقوم الظرف ويتخذ الموقف المناسب تجاهه بموضوعية وتفكير.

٣. الاستفادة من الإمكانيات:

لكل مجتمع إمكانياته الطبيعية والبشرية، التي تختلف وتتفاوت من مجتمع لآخر، وما يميز المجتمع الراشد عن غيره، هو الاهتمام باكتشاف الإمكانيات، والعمل على استثمارها والاستفادة منها، وتوظيفها في مصلحة تقدم المجتمع.

إن بعض المجتمعات تهمل مواردها الطبيعية، وتتجاهل كفاءات وقدرات أبنائها، بينما تسعى المجتمعات الواعية، لتنمية مواردها، والاستفادة من إمكانياتها الطبيعية والبشرية بأكبر قدر ممكن.

وهذه قبرص الجزيرة الصغيرة القريبة منا تشكل مثالاً للاستفادة من الإمكانيات الطبيعية، فهي تقع في الركن الشمالي الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، وتبعد عن جنوب تركيا ٦٤ كم وعن غرب سوريا ١٠٠ كم، ويقل سكانها عن السبعمئة ألف نسمة، وهم في مستوى معيشي مرتفع كالأوروبيين، وتبلغ نسبة المتعلمين فيهم ٩٠٪ ومع أنهم ليست لديهم ثروات نفطية ومعدينية، لكنهم استثمروا الطبيعة الخلابة وحولوا بلادهم إلى منطقة سياحية مهمّة، تشكل السياحة فيها مورداً اقتصادياً أساسياً، إضافة إلى الإنتاج الزراعي الوفير.

وفي مجال استثمار الموارد البشرية تقدم اليابان مثلاً رائعاً، حيث تكمن قوتها العلمية والاقتصادية، في تطوير مستوى الأداء التكنولوجي والصناعي لأبنائها، فاليابان الآن قوة اقتصادية عظمى في العالم رغم قلة مواردها الطبيعية، فهي تستورد كثيراً من الخام التي تحتاجها الصناعات.

وكم تمتلك مجتمعات أمتنا الإسلامية من قدرات وإمكانيات هائلة، لكن ما تحتاجه هو التوجه لاستثمارها وتنميتها وتوظيفها من أجل التقدم والازدهار.



حرية الرأي وتقدم المجتمع



التقدم والتخلف في المجتمعات ليس عفويًا، أو يأتي بالصدفة، أو حسن وسوء الحظ، وإنما هناك وضع يعيشه المجتمع ينتج تخلفًا أو تقدمًا.

لذلك فبالإمكان التنبؤ بمستقبل أي مجتمع، من خلال دراسة ما يعيشه من عقليات وسلوكيات يتطبع بها أفرادها، فإذا كانت هذه العقليات والسلوكيات منتجة للنهوض، فإن مجتمعها مرشح للتقدم، بينما لو كانت منتجة للجمود والتحجر، فإن المجتمع الخاضع لها سيعيش حالة من التخلف.

لذلك فإن الآية الكريمة ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [سورة الزمر: الآيتان ١٧-١٨]، تعبر بـ (بشِّر) أي يا محمد انشر البشارة، ومن المعروف أن البشارة هي: الإخبار بما يسر، وعلى العكس منها الإنذار الذي يعني التحذير من وقوع ما يضر.

والآية تبشِّرُ الذين تتوفر فيهم الصفة التالية: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

فمن تتوقع منهم الصلاح والتقدم هم من يتصفون بهذه الصفة، بينما الذين يتصفون بالصفة المعاكسة متوقع لهم التخلف والشر.

الآية تتحدّث عن صفات إذا انتشرت في مجتمع ما فيمكننا أن نتوقّع له الخير.

الإيمان وحرية التعبير:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ﴾: هناك فرق بين السماع والاستماع، فالاستماع فيه تقصّد وتعمّد، ومن ذلك نستفيد أن الآية تتحدّث عن المجتمع الذي يتقصّد فيه أفراده الاطلاع على الأقوال والأفكار المختلفة والمتعددة.

﴿الْقَوْلَ﴾: ذكر المفسّرون للقول في هذه الآية معنيين، هما:

الأول: أن المقصود بالقول في الآية مطلق القول، أي الفكرة، ومجموعة الآراء.

الثاني: أن المراد بالقول هنا خصوص القرآن الكريم.

ومن قال بالرأي الثاني وقع في مشكلة تحديد الأحسن من القرآن الكريم، حيث من المفترض أن القرآن لا يوجد بين آياته ذلك التفاضل والتفاوت بحيث يكون هناك حسن وأحسن.

ولحل هذه المشكلة وجّهوا الآية بأن المراد من ذلك أن القرآن فيه تشريع للمباحات، ودعوة للمستحبات، فالمؤمن هو من يتّبع الأحسن منهما، وهو هنا المستحب، لأنه الأولى والمثاب عليه. وضرّبوا لذلك مثلاً بتشريع القرآن للقصاص ثم دعوته للعفو، فمع أنه يحق للمسلم أن يأخذ بالقصاص، لكنه يميل إلى العفو، وهو الأحسن.

وعلى الرأي الأول - وهو ما قد ينصرف إليه معنى الآية - تعتبر الآية أن المؤمن الذي له البشارة هو من يتقصّد استماع مختلف الآراء والأفكار فيتبع أحسنها.

ومن الطبيعي أن اتباع رأي أو فكرة معينة لا يأتي إلا بعد رؤية وتفكّر وتأمل.

والآية هنا ترشدنا إلى أن يتدبّر كل من الآراء والأفكار، ويتأمل فيها، ويقارن بينها، على أن تكون مقارنته بين الحسن والأحسن، ولا يكون تأمله وتفكيره سطحياً

ودون تعمق، فتكون مقارنته بين ما هو سيئ وما هو حسن فقط، بل بين الحسن والأحسن.

وهذا الإرشاد من الآية الكريمة يوجهنا إلى نقطة مهمّة، هي: أن الإنسان لا يستطيع أن يدّعي أنه اختار الفكرة والرأي الأحسن، إلا عندما يطّلع على جميع الأفكار، لذلك فالمجتمع الواعي من تطرح فيه جميع الآراء والأفكار، دون أي حظر أو منع ليختار بنوه الأحسن منها.

وبعبارة أخرى: إن الآية تبشّر المجتمع الذي يعيش حالة من حرية الرأي والتعبير، وتعهده هو المجتمع الأقرب للهدى.

القدماء لم يكونوا يقصون الرأي الآخر:

حرية الرأي وطرح الآراء المتعدّدة كانت هي السائدة في تراثنا القديم، فنجد في الكتب النحوية القديمة - مثلاً - الرأي البصري بجانب الكوفي، يذكرهما المؤلف ويناقشهما.

وكذلك نجد في كتب اللغة ذكر الوجوه المتعدّدة للمفردة الواحدة، من غير إقصاء لأي وجه، ولو كان شاذّاً.

وحينما نراجع تفاسير القرآن، نجد المفسرين يستعرضون مختلف الآراء في تفسير الآية، ويرجّحون منها ما يتبنونه من رأي. لذلك فكتب التفاسير القديمة تشكّل ثروة من الآراء حول تفسيرات القرآن الكريم.

وفي كتب الفقه وأصوله، نجد العلماء يبحثون الآراء في كل مسألة، ويرجّحون منها رأيهم الذي يؤمنون به بعد نقاش علمي جادّ.

وفي كتب التراث نجد الرأي المشهور بجانب الرأي الشاذ، فالعبرة بالدليل وليس بشيوع أو شذوذ الرأي، إذ ربما يكون الرأي الشاذ يحمل في داخله دليلاً يقوِّيه.

المجتمعات الإسلامية وأحادية الفكر:

لكن حالة التخلف أو جدت سيادة الرأي الواحد في مجتمعاتنا الإسلامية، ورفض طرح أي رأي مخالف فيها، بينما في المجتمعات المتقدمة يكون الرأي الآخر جزءاً من الحالة الاجتماعية، على مختلف الصعد السياسية والعلمية والفكرية.

وما تعيشه مجتمعاتنا اليوم مخالف لما تطرحه الآية، فالله سبحانه وتعالى - في هذه الآية - يطلب منا أن نستمع لمختلف الآراء وتتبع أحسنها، فكيف نبحت في الآراء إذا كنا نقصدها ونرفضها.

إن البعض بمجرد أن يسمع رأياً مخالفاً لما ورثه من ثقافة سائدة، يعتبر من يطرح هذا الرأي «ضالاً» و«خائناً» و«منحرفاً» فكرياً وعقائدياً، وغيرها من التهم الجاهزة، وهذا من مظاهر التخلف في هذه المجتمعات.

من المفترض أن تكون هناك فرصة لطرح الآراء، وعلى الناس أن يستخدموا عقولهم لمحاكمة هذه الآراء، انطلاقاً من إمكانية الاعتماد على العقل وعدم تعطيله. وكذلك لأنه الحجة الباطنة التي يحجنا الله بها يوم القيامة، فكما يحتج على الإنسان بالحجة الظاهرة وهم الرسل يحتج عليهم بالعقل.

آليات تقبل الرأي الآخر في المجتمع:

إن المجتمعات التي تعيش أحادية الرأي والفكر لا يمكن أن تتقدم وتتغير سلوكياتها إلا بعاملين:

الأول: وجود جرأة في طرح الرأي

وفي هذه المجتمعات المتخلفة لا تكون الظروف مهيأة لمثل هذه الخطوة، بل تكون الجرأة مكلفة، وغالباً ما يكون الرواد والأوائل هم الذين يدفعون ثمن جرأتهم، وقد يكون الثمن باهظاً يصل إلى درجة القتل في بعض الأحيان.

ولكن لتغيير الذهنيات والسلوكيات الاجتماعية المسيطرة يجب أن يكون هناك إصرار على طرح الرأي، وذلك لكي يعلن هذا الرأي وليعرف متبناه مدى مصداقيته، حتى تنضج حوله الفكرة من خلال الردّ والردّ المقابل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليمهّد هذا الطرح السبيل لأن تطرح آراء أخرى من قبل الآخرين.

الثاني: احترام الرأي من قبل المجتمع

بحيث يتعوّد المجتمع أن يقبل طرح فكرة مغايرة لمألوفه، ويناقد من يطرحها نقاشاً علمياً جاداً، أما إذا كان هناك قمع فكري لكل من يتجرأ على طرح الرأي المخالف، فلا يمكن لهذا المجتمع أن يتقدّم، فالآية تبشّر من يستمع ويناقد ويتفكر، لا من يرفض إعطاء الفرصة لطرح الرأي الآخر.



النقد الذاتي الاجتماعي



يُقَسِّمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَاتَيْنِ الْآيَاتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ بِأَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ:
يقول تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [سورة القيامة:
الآيتان ١-٢].

الأول: القسم بيوم القيامة، ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، و ﴿لَا﴾ ليست نافية للقسم،
وإنما مؤكدة له. ومعروف للجميع عظمة وأهمية يوم القيامة، إنه اليوم الذي يُحْشَرُ
فيه الناس ويُحَاسَبُونَ، ويتقرر مصيرهم الأبدي.

الثاني: القسم بالنفس اللوامة، ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾، واقتران الأمرين
في القسم يُشعر بأنهما على درجةٍ متقاربةٍ من العظمة والمكانة.

ما هي النفس اللوامة؟

اللوامة: من اللوم، وهو معاتبة الإنسان نفسه، ومراجعتة لها، لكي يُحاسبها
على الخطأ. وعندما تكون هذه الحالة دائمة عند الإنسان، يُطلق على نفسه: النفس
اللوامة.

الله سبحانه وتعالى جعل في نفس الإنسان هذه الخاصية، تمامًا كوجود المناعة
في جسم الإنسان ضد الأمراض، وإذا اخترق نظام المناعة في جسم الإنسان فإن

حياته تكون معرضة لجميع الأخطار، وهذا ما يُعبر عنه الآن بالمرض الخطير (الإيدز).

و(النفس اللوامة) نظام مناعة روعي عند الإنسان، في مقابل جرائم الذنوب والأخطاء، فمن طبيعة الإنسان أنه إذا أخطأ تحرك ضميره وأشعره بالخطأ، وفي لحظات التأمل يُحاسب الإنسان نفسه على أخطائه. ولكن إذا فقدت هذه الحالة، بسبب تراكم الذنوب والأخطاء، عندها لا يعود الخطأ باعثاً للمحاسبة والمراجعة. فيخرج الإنسان من دائرة (النفس اللوامة) ويبقى منحصرًا في دائرة (النفس الأمارة)، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، ويكون الإنسان حينها في منطقة الخطر والهلاك، إلا أن يُنقذه الله تعالى، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾.

النقد الذاتي ضرورة وصعوبة :

النفس اللوامة: تعني أن الإنسان يواجه نفسه، ويُحاسبها على الأخطاء، وهذا أمرٌ مهم، لأن محاسبة النفس والنقد الذاتي بمقدار ما هي عملية ضرورية إلا أنها عملية صعبة.

النقد الذاتي ضرورة، لأن الإنسان إذا لم يقم بنقد ذاته يسترسل في الخطأ، أما إذا انتقد ذاته وحاسب نفسه فإنه يُنقذها من ذلك الخطأ ويتجاوزها. وهي تُشبه إجراء الفحوصات الدورية على الجسم لاكتشاف أعراض الأمراض، ومعالجتها قبل استحكامها في الجسم.

فالنقد الذاتي ضرورة، ولكن فيه صعوبة، سواء على الصعيد الفردي أو الاجتماعي.

على المستوى الفردي:

أولاً: النقد الذاتي يُحمل الإنسان مسؤولية التغيير، والمواجهة مع الشهوات الأهواء.

فالخطأ إنما يحصل بسبب الهوى والغفلة، وحينما يقوم الإنسان بعملية النقد الذاتي، يكون وجهًا لوجه أمام داعي الهوى والشهوة، وأمام حالة الغفلة والاسترسال، وهذه عملية صعبة.

ففي كثير من الأحيان، إذا سيطر الهوى على نفس الإنسان، فإنه يبقى منشداً لهواه وشهوته. إنه في لحظة التأمل يُدرك ضرورة تجاوز الخطأ، لكن جاذبية الهوى والشهوة تجعل عملية الارتداد عن الخطأ عملية صعبة، فيبقى الإنسان في حالة صراع مع نفسه، لذلك تجد البعض من أجل أن يُريح نفسه من هذه المعركة والصراع الداخلي، يتعد كلياً عن محاسبة نفسه ومراجعتها.

ثانياً: النقد الذاتي يُشعر الإنسان أنه في موقف هزيمة وتراجع.

الإنسان عندما يكون له رأي معين أو موقف، فإنه عندما ينتقد ذاته، قد تكون نتيجة ذلك أن يتراجع عن رأيه وموقفه، وهذا يُشعره بأنه في حالة هزيمة أمام الآخرين، وغرور الإنسان لا يسمح له بأن يضع نفسه في هذا الموضع، فيكابح ولا يعترف بخطئه، حتى لا يظهر أمام الآخرين وكأنه انهزم.

على المستوى الاجتماعي:

كل مجتمع من المجتمعات معرض لأن تكون فيه أخطاء، في الأفكار وأنماط السلوك. وقد لا تكون الفكرة أو السلوك خطأ محضاً، وإنما تغير الظروف والأوضاع تجعله خطأ، فقد تكون ممارسة من الممارسات في وقت من الأوقات صحيحة، ولكن مع تغير الزمن تُصبح تلك الممارسة خطأً وتحتاج إلى تغيير ومعالجة.

وغالباً ما يكون النقد الذاتي في المجتمعات أمراً صعباً، وخاصةً في المجتمعات التي تغيب فيها الأجواء المساعدة على النقد، مثل حرية التعبير عن الرأي وحرية الفكر. هنا يُصبح المجتمع في حالة تنزیه لذاته، ويكون هناك غفلة عن الثغرات الداخلية، وغالباً ما تكون وسيلة التغطية على المشاكل الداخلية توجيه الأنظار إلى

العدو الخارجي.

ف نجد أن بعض الأنظمة السياسية توجه الأنظار للأعداء الخارجيين، وتحاول بين فترةٍ وأخرى افتعال مشكلة خارجية، حتى تصرف أنظار الناس عن المشاكل الداخلية الموجودة.

وعلى المستوى الثقافي والاجتماعي تجد أن الناس يتحركون باندفاع ضد مشكلة خارجية، لكنهم بصعوبةٍ بالغة يتحركون ضدّ خطأ في الداخل.

لماذا يسهل علينا الاعتراض على عدوان الآخرين علينا، لكن في المقابل نتغاضى عن الأخطاء الداخلية؟

وتجد مثل هذه الحالة قائمة بين المذاهب المختلفة أيضاً، فكل طرف يتجه نحو أخطاء الطرف الآخر، فالشيوعي يبحث في الأخطاء الموجودة في كتب السنة، وهو بذلك يُحقق رصيذاً إيجابياً بين جماعته، وكذلك الحال بالنسبة للسني. ولكن هل يتمكن الباحث الشيوعي أو السني من مناقشة الأخطاء الموجودة في تراثه؟ لذلك أصبحت الأخطاء مغضوفاً عنها، وأصبحنا ننطوي على الأخطاء الموجودة في التراث والتقاليد.

هذه الحالة سائدة في المجتمعات المتخلفة، أما المجتمعات المتقدمة فإن حالة النقد الذاتي متوفرة، إن المعارضة فيها جزءٌ من النظام السياسي، بينما في غالب المجتمعات العربية تُعتبر المعارضة إجراماً.

ولو قرأ الإنسان مذكرات كبار العلماء عند السنة أو الشيعة، يجد أن من يتوجه للنقد الذاتي الداخلي في المجال الديني والثقافي يُنبذ ويُحاصر.

والأسوأ من ذلك أن الأجواء الدينية تواجه حتى التطوير في الوسائل بمعارضة شديدة، فضلاً عن نقد التراث والممارسات.

وهنا سؤال يطرح نفسه: هل نحن متأكدون أن كل الأفكار والممارسات في مجتمعنا صحيحة؟ وإذا كانت صحيحة، أليس هناك ما هو أصح منها؟!

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [سورة الزمر: الآية ١٨].

فلماذا لا يكون هناك مجال للنقد؟

هناك عدة أسباب تعترض حرية النقد:

أولاً: شعور يسود البعض بأن انتقاد بعض الأمور وإن كانت جانبية، يعرض مجمل البناء للهدم. ولكن كما يجب علينا أن نخاف من أن يكون هناك تفريط، فإن الحذر من الإفراط مطلوب، وكما نخاف من أن نقد غير الصحيح قد يطال الصحيح، فإنه يجب علينا أن نخاف من أن السكوت على غير الصحيح قد يقودنا إلى خطأ آخر، وقد يعمق الأخطاء الموجودة.

ثانياً: القول بأن عملية النقد تظهر ضعفنا أمام الآخرين. وهذا الكلام مضى وقته، لأنه لم يعد هناك أمور مخفية. بل إن النقد الذاتي أصبح الآن مظهر قوة وليس مظهر ضعف، فالجهة التي تنتقد ذاتها، وتصحح أخطاءها، أقرب إلى الاحترام من الجهة التي تتستر على الأخطاء. وإذا كانت المسألة ذات بعد ديني، فهناك مسؤولية دينية، فبأي حق نتستر على خطأ فيه ضرر على الدين، ومصالح المؤمنين، بهذه المبررات الواهية؟

ثالثاً: وجود قوى منافسة في كل مجتمع تحمي الحالة السائدة، ففي المجتمع بعض الجهات تعتبر أن من مسؤوليتها حماية الحالة السائدة، فليس لديهم قضية يُدافعون عنها أو يُبرزون قوتهم فيها، فيكون الدفاع عن السائد هو ساحتهم وميدانهم لاستقطاب الآخرين إليهم، لذلك تجدهم يرفضون أي نقد، أو تصحيح، أو تطوير، وهذا يؤدي إلى أمرين:

الأول: أن نقاط الضعف تبقى في المجتمع، فتضعفه أمام الآخرين.

الثاني: حصول ردود فعل داخل المجتمع عند الشباب والناشئة، الذين ينفرون من الأفكار والحالات غير المقنعة.

بالطبع لا يعني هذا أن أي نقد هو مصيب وصحيح، فقد يكون هناك خطأ أو اشتباه في تشخيص ما يستحق النقد، ولكن ما نصبو إليه هو ألا يكون النقد جريمة، وألا يكون الحديث عن الخطأ مرفوضاً. والمشكلة أن هذا الإرهاب الفكري يطال العلماء والمفكرين في المجتمع، فيقعد بهم عن إعلان موقفهم أو رأيهم، تجاه أي قضية أو ممارسة في المجتمع. وهذا وضعٌ خطير على مستوى المجتمعات والطوائف، وعلى مستوى الأمة الإسلامية بشكلٍ عام.

وأين نحن عن النصوص التي تدعو الإنسان المسلم لمحاسبة نفسه، يقول الإمام علي عليه السلام: «مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رِيحًا، وَمَنْ عَقَلَ عَنْهَا خَسِرًا»^(١)، ويقول عليه السلام: «ثَمَرَةُ الْمُحَاسَبَةِ إِصْلَاحُ النَّفْسِ»^(٢).

وأيضاً: لماذا لا نستفيد من تجارب الآخرين، وبقية المجتمعات التي شرّعت النقد في مجتمعاتها فتقدمت، بينما مجتمعاتنا تعيش حالة ممانعة من أي نقد ذاتي.

إن النقد عامل قوة للمجتمع وإيضاح للحقيقة.

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٢٠٨.

(٢) عبدالواحد الأمدي التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٣٢٩.



— الألام والآمال بين الأقوال والأعمال —

احتكاك الإنسان بهذه الحياة يُنتجُ لديه رغبات وتطلعات، كما أن طبيعة الحياة فيها عوائق أمام ما يطمح إليه الإنسان ويرغب فيه. وهنا ينقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو من يلتزم الصمت؛ يرغب في شيء ما، ولكن تبقى الرغبة حبيسة في نفسه، لا يظهرها لأحد. يواجه عوائق تعترض طريق تقدمه، فيتألم منها، لكن يبقى ألمه حبيسًا في نفسه، لا يشرك أحدًا بما يحس.

القسم الثاني: هو من يحترف الحديث والتعبير عما بداخله؛ يتحدث عن آلامه التي يعاني منها، وعن آماله التي يتطلع إليها، ويريد تحقيقها، يفصح عما بداخله في أي فرصة تتاح له. وهذا القسم يعتبر درجة متقدمة عن القسم السابق.

القسم الثالث: هو من يسعى ويجتهد لتحقيق تطلعاته، ولإزالة العوائق من طريقه، وهذا هو الأفضل. لا يُبقي الرغبة حبيسة في نفسه، ولا يكتفي بالتحدث عما بداخله، وإنما يجتهد لتحقيق تلك الرغبة، ويفكر كيف يحققها، ويخطط، ويكثف جهده العملي حتى يحقق ما يريد.

العوائق ليست قدرًا مفروضًا، حتى يقف الإنسان أمامها مكتوف الأيدي.

والمؤمن في صورته الصحيحة هو من الصنف الثالث.

لذلك يقول الله تعالى في سورة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الصف الآيتان ٢-٣]. لماذا تكون التطلعات لديكم مجرد حديث وكلام، لماذا لا تسعون وتجتهدون لتحقيق ما تصبون إليه؟

ولماذا لا تطبقون وتنفذون ما تؤمنون به؟!

﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ والمقت هو الغضب الشديد. هذا من حيث الأفراد، وبما أن الأفراد في مجموعهم يشكلون المجتمع، فالأصناف الثلاثة ذاتها تنطبق على المجتمعات، وهو ما نريد الحديث عنه.

مجتمع الصمت:

بعض المجتمعات تبقى أمالهم وآلامهم حبيسة في نفوسهم، لا يصرحون بها، إما لسبب سياسي أو اجتماعي، أو لأي سبب آخر، وفي بعض الأحيان ينكرونها، فإذا ما سئلوا عن أوضاعهم أجابوا بعكس ما يريدون وما يشكون، بأن أوضاعهم طيبة ولا ينقصهم شيء، فيبدو للسائل أن حالهم على ما يرام.

مجتمع الكلام:

هي مجتمعات تحترف الحديث عما بداخلها، في أي مجلس تجد حديثاً واسعاً ومفصلاً عما يريدون ويتطلعون إليه، وعن المشاكل التي يواجهونها، لكن ذلك يبقى مجرد أحاديث في المجالس، ومنتديات الإنترنت واللقاءات، ليس هناك خطة عملية يتحركون من خلالها. وقد أصبحت بعض منتديات الإنترنت مجلساً عامراً للتحدث والكتابة بلا مسؤولية غالباً، خاصة عندما يكون الاسم مستعاراً، حتى إنك تحس أن من يكتب لن يرضى إلا بحل المشكلة ومعالجتها من جذورها، ولكن

بمجرد أن ينهي حديثه يحسّ بأن دوره انتهى، ويمضي لينام قرير العين.

مجرد الحديث من دون عمل لن يحقق شيئاً. جاء في الرواية عن رسول الله ﷺ يوصي الإمام علياً عليه السلام: «يَا عَلِيُّ: لَا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ إِلَّا مَعَ الْفِعْلِ»^(١) تتحدث عن مشكلة ما، إذا لا بد أن تضع لها برنامجاً عملياً لحلها.

مجتمع الفعل:

هي المجتمعات ذات الفاعلية والنشاط، تجتهد لتحقيق آمالها، وتعمل المستحيل لمعالجة آلامها. وهي المجتمعات التي تريد التقدم وتحسين أوضاعها، يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «زِيَادَةُ الْفِعْلِ عَلَى الْقَوْلِ أَحْسَنُ فَضِيلَةٍ، وَنَقْصُ الْفِعْلِ عَنِ الْقَوْلِ أَقْبَحُ رَذِيلَةٍ»^(٢). أي إن المجتمعات التي يكون فعلها أكثر من قولها تعيش حالاً حسناً، بخلاف من يكون قولها أكثر من فعلها.

مجتمعاتنا والمجتمعات الغربية

الآية الكريمة تريد أن تنقل مجتمع المؤمنين إلى المرحلة الصحيحة، مرحلة العمل والسعي الحثيث، أيها المؤمنون! لا تحترفوا الحديث عن آلامكم وآمالكم، وإنما يجب أن تباشروا العمل من أجل تحقيق تلك الآمال، وتجاوز تلك الآلام.

إذا نظرنا في ضوء هذه الفكرة إلى واقع مجتمعاتنا الإسلامية، وقارناها بواقع المجتمعات الغربية المتقدمة، سنجد الفرق كبيراً جداً.

لو كُلف باحث بإعداد قائمة يرصد فيها آلام وآمال بلد ما من بلاد المجتمعات الإسلامية، فلا شك أنه سيحصل على قائمة طويلة لتلك الرغبات والمشاكل. لكنه لو أراد أن يحصي المشاريع العملية فيما يخص الآمال والآلام، فلن يجد إلا شيئاً

(١) الشيخ الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٦٩.

(٢) غرر الحكم والكلم، ص ٢٧٦.

متواضعًا لا يستحق الذكر.

بينما حين يطلع الإنسان على واقع المجتمعات المتقدمة ذات الفاعلية والنشاط، فلن يرى هناك مسافة كبيرة بين الآمال والأعمال، لأنها مجتمعات تتحرك فور نضوج أي فكرة لأي أمل أو ألم.

في مجتمعاتنا هناك مشاكل مزمنة ولم يتم السعي بعد لحلها. وأقرب مثل واضح؛ الأمراض. نحن نعاني من الأمراض، والآخرين يعانون كذلك، ولكن في المجتمعات الغربية تجد سعيًا حثيثًا لإيجاد العلاج، أما نحن فننتظر أن يأتينا هذا العلاج!

في المجتمعات الغربية ترصد مبالغ كبيرة لعلاج الأمراض الخطيرة كالأيديز، والسرطان، فضلًا عن الأمراض الشائعة، أما نحن فنبكي منتظرين رحمة الله تعالى وفرجه، منبهرين بما وصل إليه الغرب من تقدم، ناظرين إلى وقت يجودون فيه علينا بما توصلوا إليه!

تلك المجتمعات لا تكتفي بإيجاد العلاج فقط، بل بعمل بحوث ودراسات لتطوير العلاج ذاته، ونحن نبقي هكذا، لا نقدم ولا نؤخر!

لو اقتربنا إلى مشاكلنا الاجتماعية، نرى أن مجتمعاتنا احترفت فن الحديث حول المشاكل، ولو سألنا أحدًا عن مدى معاناتنا لهذه المشكلة؟ سنقول بملء الفم: من زمن بعيد!

ظواهر سلبية :

يمكننا أن نرصد الظواهر التالية التي تبرز في مجتمعاتنا:

الاستغراق في وصف المشكلة والفضفضة حولها

حينما نتحدث عن مشكلة ما، تجد من يزيدك من الشعر أبياتًا، ومن الرواية

فصلاً. تفاصيل كثيرة، لكن دون أن نستثمرها للوصول إلى حل. كل أحاديثنا تتجه لزيادة قائمة المشاكل وتوصيفها، لكن قوائم الحلول مغيبة، أو بالأصح ملغية، لا تفكير، ولا بذل، ولا تخطيط، ولا تطوير، هذا ما يكون في الغالب الأعم، وهنا يأتي خطاب الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ لماذا تجترون الكلام فقط، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ إن غضب الله يشد على من يكون قوله خلاف عمله.

بعض الخطباء مثلاً يصفون المشكلة بتفاصيلها، وفي بعض الأحيان يصفون عليها بعض المحسنات البديعية، لشد انتباه المستمع، والناس ينبهرون مما يسمعون ويتشكرون من الخطيب لحسن عرضه للمشكلة، ولتلمسه ما يحسون به. ونستمر هكذا في كل سنة نتفنن في عرض المشكلة ذاتها أو مشاكل أخرى، ولكن هل نطرح حلولاً لهذه المشاكل؟!

هناك إشباع في توصيف المشاكل، والمبالغة في الوصف، وهذه حالة سلبية، فهي تستهلك طاقة الإنسان النفسية، ورد عن الإمام الباقر عن أبيه زين العابدين عليه السلام يقول: «مَا أَكْثَرَ الْوَصْفَ وَأَقَلَّ الْفِعْلَ، إِنَّ أَهْلَ الْفِعْلِ قَلِيلٌ، إِنَّ أَهْلَ الْوَصْفِ قَلِيلٌ»^(١).

ما دام الإنسان مندفعاً متحمساً فعليه أن يتحرك، لا أن يفرغ طاقة الحماس هذه في الكلام، وإخراج ما في النفس من هم، فذاك يوحى له بأن دوره قد انتهى، ويشعر براحة بعدما يفصح عما بداخله، وهذا أسلوب مستخدم في العلاج النفسي لحل المشاكل الشخصية.

السعي أمر ضروري لحل المشكلات، كما هو المثل المعروف بين الناس: «منك الحركة ومن الله البركة».

اجترار الكلام هكذا من دون عمل لن يقدم ولن يؤخر.

(١) الكافي، ج ٨، ص ١٩٠.

صفة المؤمن كثرة العمل وقلة الكلام، وإذا ما انعكست هذه الصفة صار في عداد المنافقين كما روي عن الإمام الكاظم في وصيته لتلميذه هشام بن الحكم: «يَا هِشَامُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ... الْمُؤْمِنُ قَلِيلُ الْكَلَامِ كَثِيرُ الْعَمَلِ، وَالْمُنَافِقُ كَثِيرُ الْكَلَامِ قَلِيلُ الْعَمَلِ»^(١).

إلقاء المسؤوليات على الآخرين

في كثير من الأحيان نقف مكتوفي الأيدي، متوقعين الحل من جهة ما، سواء كانت خارجية أو داخلية، وأحياناً نعلق آمالنا على شخص أو تيار معين، تارة لحسن ظن، وتارة لنلقي المسؤوليات على غيرنا بقصد الإحراج والتشويش، أو لكي نخلي أنفسنا من المسؤولية وهذا غير صحيح، رسول الله ﷺ كان يوصي الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود: «يَا ابْنَ مَسْعُودٍ! فَلَا تَكُنْ مِمَّنْ يُشَدُّ عَلَى النَّاسِ وَيُخَفِّفُ عَلَى نَفْسِهِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾»^(٢)، لا تلزم الناس بمسؤوليات وتنسى نفسك.

المتصدي لحل مشاكل مجتمعه في تلك المجتمعات المتقدمة، يلقي زحماً من التشجيع والشكر والعطاء، وكأنهم بلسان الحال يقولون: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، خلاف من تعيهم الآية الكريمة التي تنطبق على مجتمعاتنا الاتكالية: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢٤]. من يتصدي لحل المشاكل في مجتمعاتنا يلقي الويلات، فعند حدوث أي تعويق وتأخير يحملونه المسؤولية، وكأنه السبب في ذلك، وعندما يسعى لحلها وينجح في ذلك، فلن تجد من يشكره ويبدل معه، إلا القليل! وويله إذا لم ينجح سعيه!!

المجتمع الطبيعي الفاعل لا يتلخص في شخص ما، أو جهة ما، أفراد المجتمع كلهم مسؤولون ومطالبون بالتحرك والعمل.

(١) تحف العقول عن آل الرسول، ص ٢٩٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٠٩، باب مواعظ النبي ﷺ لابن مسعود.

إن مجتمعاتنا بحاجة إلى الانتقال للدائرة الثالثة، يكفيننا حديثاً عن الآمال والآلام، نريد عملاً، نريد حلاً لما نشكو منه. لو استخدمنا ٢٠٪ من الطاقة المبذولة في حديثنا عما نريد، وصرفناها في التفكير وإيجاد الحلول المناسبة والعمل والتحرك، لحققنا الشيء الكثير، ولأمير المؤمنين علي عليه السلام رواية جميلة تقول: «غَضِبُ الْجَاهِلِ فِي قَوْلِهِ، وَغَضِبُ الْعَاقِلِ فِي فِعْلِهِ»^(١).

(١) بحار الأنوار، ج ١، ص ١٦٠، حديث ٤٣.



الجرأة في طرح الآراء الإصلاحية

تتحدث الآية ٣٧ من سورة الأحزاب وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ عن قضية حدثت في المدينة المنورة، في السنة الخامسة للهجرة، ذلك أن الرسول ﷺ كان له غلام وهبته له زوجته خديجة بنت خويلد ﷺ، هو «زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي» كانت قد تملكته بالطرق التي كان يتملك بها الأرقاء والعبيد من خلال المعارك، حيث يؤسر الأفراد ويبيعون من قبل القوة المنتصرة التي تأسرهم. وزيد كان غلاماً صغيراً حينما أسر في إحدى المعارك، بيع فاشتراه حكيم بن حزام لعمة خديجة، ثم وهبته للرسول ﷺ بعد زواجها به، وكان عمر زيد آنذاك ثماني سنوات.

وبعد فترة جاء أهله يبحثون عنه، حتى يستعيدوه بأي ثمن، فخير رسول الله ﷺ زيدا بين أن يبقى معه أو يذهب مع أهله، فاختار زيد البقاء مع الرسول ﷺ قائلاً: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً.

فقام الرسول ﷺ بتبنيه ضمن ما هو سائد في الجاهلية.

وكان متعارفاً في الجاهلية: أن الرجل إذا تبني شخصاً يصبح بالنسبة له بحكم الولد الصلبي، أي تترتب عليه - عندهم - جميع الآثار للأبوة والبنوة.

ولذلك فإن زيداً بعد هذه الحادثة أصبح يطلق عليه زيد بن محمد.

وقد أطلقه الرسول وحرّره من الرق. وزوجه أم أيمن مولاته، فولدت له أسامة بن زيد ثم طلقها، فزوجه الرسول ﷺ زينب بنت جحش الأسدي وهي ابنة عمّة النبي ﷺ أميمة بنت عبد المطلب.

وحصلت حالة من عدم الانسجام بين زيد وزوجته زينب، وكان زيد يشكو زوجته إلى رسول الله ﷺ ويهدّد بتطليقها، لكنّ الرسول ﷺ كان ينصحه بأن لا يطلقها، وأن يمسك عليه زوجته.

والآية توضّح أن الرسول ﷺ كان يعلم - من قبل الله تعالى - بأن زيداً في النهاية سيطلق زينب، وسيزوجها الرسول ﷺ، وذلك لحكمة تشريعية، من أجل نقض العرف الاجتماعي السائد، الذي يقضي بأن الرجل إذا تبني رجلاً يصبح بمكانة ابنه، بحيث لا يستطيع أن يتزوج مطلقته.

إن التشريع يريد أن ينقض ذلك العرف، إضافة إلى أن زيداً كان عتيقاً، ورسول الله في مكانته وعظمته، فكان مستهجنًا في عرف الجاهلية أن يتزوج شخص بهذه المكانة طليقة عبد معتق.

لذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن ينقض هذا العرف الطبقي، فيتزوج الرسول من ابنة عمته زينب بنت جحش.

مع معرفة الرسول ﷺ بهذا الأمر، إلا أنه كان يشجع زيداً على ألا يطلق زوجته، فكلما جاء زيد يتحدّث عن مشكلته مع زوجته كان الرسول ﷺ ينصحه بالإبقاء عليها، وعدم تطليقها.

وهنا نزلت الآية الكريمة تعالج هذه القضية، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، حيث أنعم الله على زيد بنعمة الوجود والإسلام وغيرها من نعم الله التي لا تحصى، وكذلك أنعم الرسول ﷺ على زيد أن أعتقه وتبناه وقرّبه وربّاه.

﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ بالصبر على زوجتك، فالطلاق أمر غير محبّب عند الله سبحانه.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾: فالرسول ﷺ في علمه أن زيداً سيطلق زينب بنت جحش، لكنّه أخفى هذا الأمر ولم يتحدّث عنه، ولم يسهّل أمر تحقيقه، بأن يترك زيداً ينفذ رغبته في الطلاق.

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾: ما كان رسول الله ﷺ يريد لزيد أن يطلق زوجته بسرعة، فينفذ أمر الله بأن يتزوجها بعده، فقد كان هناك خشية عند الرسول ﷺ أن هذا سيثير بعض الاتهامات في الوسط الداخلي تجاهه، فيتهم - مثلاً - بأنه رغب في زوجة مولاه، كما تحكي هذه الفكرة بعض المرويات المدسوسة.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية هناك احتمال أن يتهم ﷺ بأنه خالف القانون والعرف السائد اتباعاً لهواه ورغبته الشخصية.

أو يثار حوله ويعاب عليه أنه تزوّج مطلّقة مولى، وهو في مكانة عالية في قومه، وفي موضع الزعامة فيهم.

﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾: أي لا ينبغي أن تهتم بهذه الإثارات، التي تكون في أوساط الناس، والنبى ﷺ كان يخشى الاتهامات حفاظاً على الرسالة.

هذه الآية لو تأمل فيها الإنسان، يتّضح أن خشية المبلّغ والمصلح من الاتهامات التي تكون في وسط المجتمع كانت موجودة بنسبة ما في نفوس الأنبياء، فالنبى ﷺ ما كان يخشى على نفسه شيئاً، بأن يضرّوه، لكن لأنه ﷺ كان يحمل رسالة فكان يخشى أن يؤثر اتهام الناس له على إتباعهم لهذه الرسالة، وعلى ثقتهم بحامل

الرسالة ومبلغها.

هذه الخشية كانت موجودة بدرجةٍ ما، لذلك فالآية تتحدّث عنها.

وفي آية أخرى تتحدّث عن الفكرة نفسها، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧] ففي هذه الآية يتحدّث المفسرون حسب الروايات الصادرة بخصوص هذه الآية أن الرسول ﷺ كان مأمورًا أن يبيّن للناس ولاية الإمام علي ﷺ بعده، لكنه ظل لفترة متوقفًا، حتى لا يكون هناك شكوك واتهامات في أوساط ضعاف النفوس، أن الرسول ﷺ إنما عيّن في هذا الموقع لأنه صهره، وابن عمّه، وبينه وبين الرسول ﷺ علاقة وثيقة، لذلك تأتي هذه الآية لتخاطب الرسول ﷺ بهذه اللهجة المشدّدة.

المصلح بين الجراءة والانكفاء

نريد أن نطلق من الآية الكريمة إلى هذه المسألة، التي تدور حول المصلح الذي يحمل رسالة الإصلاح والتغيير في المجتمع، إذ قد يجد في بعض الأحيان نفسه في ذات الموقف الذي تعرضه الآية، وذلك حينما يتحدّث عن فكرة أو رأي أو حكم شرعي، وبعض الناس لا يتقبّلون طرحه، بحيث يشككون في هذا المصلح، وهي مشكلة يعيشها كل المصلحين، لذلك نجد كثيرًا من المصلحين يكتُمون بعض آرائهم وأفكارهم، خشية أن يكون ذلك سببًا لردود أفعال من قبل الناس.

وليس بالضرورة أنهم يخشون من أن تتضرر مصالحهم الشخصية، ولكن لأنهم يخشون أن يؤثر ذلك على تفاعل الناس معهم.

وهذا حصل كثيرًا في التاريخ الماضي والحاضر، فعدد كبير من العلماء لهم آراء يتحدّثون بها لخواصهم، وفي الدائرة الضيقة القريبة منهم فقط، ولا يجهرون بها أمام الناس، لأن عمّة الناس لو سمعوا منهم هذا الرأي المخالف للساند عندهم،

فإنهم سيفقدون الثقة تجاه هذا العالم الذي طرح هذا الرأي، وفي بعض الأحيان يكون هناك صراع وتنافس داخلي، فيستفيد من هذا الموضوع بعض الأشخاص بإثارة الناس على هذا الشخص أو هذه الجهة ضمن تصفية حسابات.

لذلك ينقل الشهيد الشيخ مرتضى مطهري عن المرجع الراحل السيد البروجردي رحمه الله أنه تحدث مرة في أحد دروسه الفقهية، أمام تلامذته، وهو المرجع الأعلى عن معاناته الذاتية، في اضطراره لإخفاء بعض آرائه تقيية من المجتمع قائلاً:

(ليس ثمة ما يدعو للعجب، فالتقية من أصحابنا أهم وأعلى، أنا نفسي في أوائل بلوغي مرحلة المرجعية العامة، كنت أظن أن عليّ أن أستنبط الأحكام وعلى الناس العمل بها، فما أفتي به يعمل به الناس، رأيت أن الأمر ليس كذلك)^(١).

وما ذكره الشيخ المطهري عن الساحة الشيعية ذكر مثله الشيخ يوسف القرضاوي عن الساحة السنية، حيث قال في جريدة الشرق الأوسط بتاريخ (٣٠ / ١ / ٢٠٠١م): إن كثيراً من العلماء يحملون رأيهم في صدورهم، ولا يبوحون به خشية الوقوع في الخلاف والاختلاف.

وضرب مثلاً على ذلك بقول الشيخ محمد أبو زهرة في أحد المؤتمرات: أنه عنده رأي كتبه عشرين عاماً، ويريد أن يبوح به الآن. وأضاف الشيخ القرضاوي: إنني كتبت بعض الفتاوى لسنين طويلة خشية أن يهاجمني المهاجمون، ثم بدأت أفصح عن هذه الفتاوى وأنشرها.

لذلك فإن بعض المصلحين يخشى أن يطرح موقفه، حتى لا تزايد عليه بعض الجهات في دينه ومواقفه الوطنية، أو أن تستفيد من طرحه هذا لتستثير عواطف الجمهور ضده، وبذلك أصبحت مشاعر الجمهور سلطة على الرأي الديني والفقهي.

(١) مرتضى المطهري: محاضرات في الدين والاجتماع، ص ٥٥٩.

العلماء وسلطة الجمهور

في كثير من الأحيان يكون العلماء عندهم آراء لا يبديونها، ومما يذكر في هذا المجال ما يشاع في بعض أنحاء القارة الهندية، وخاصة في باكستان، عند جمهور الشيعة: أنه لا يجوز لغير الهاشمي أن يتزوج من هاشمية، بل تصل إلى أن يُهدر دم من يقوم بهذا العمل. ويتحفظ العلماء ويخافون من تكذيب هذا القول وتبيين بطلانه.

وقد أُخبرت عن بعض المبلغين لما أراد أن يتوجّه إلى هذه المنطقة، أو صاه أحد العلماء بأنه إذا سُئِلَ عن رأيه في هذه المسألة، أن يخبرهم بأن لا فتوى للمرجع في هذا الموضوع، وذلك حتى لا يحصل ردّ فعل يؤثر على المرجع في أوساط ذلك المجتمع.

في بعض الأحيان يحاول البعض أن يبين أن التحفظ والحساسية منحصرة في مسائل العقيدة فقط، لأنها من المسائل الحسّاسة، والناس لا يتحمّلون طرْحًا مخالفًا فيها، لكننا نجد الحالة نفسها في المسائل الفقهية.

فالإمام الخميني حينما أصدر فتوى حول الشطرنج وأنه جائز ما لم يصحبه قمار، ظهرت بعض الأصوات المندّدة ولم تكن هذه المسألة عقديّة.

وكذلك أثّرت ضجة حينما أفتى المرجع السيد محسن الحكيم بطهارة أهل الكتاب، وهي ليست مسألة عقديّة.

والبعض الآخر يبرّر الانفعال الذي قد يحدث نتيجة طرح الآراء الناقدة الإصلاحية: بأن الناس عادة لا تقبل إلا من الفقهاء، أما إذا كان المتحدث شخصًا لم يصل إلى رتبة الاجتهاد فالناس لا تقبل منه، لأن هذه المسائل لا بدّ أن يبتّ فيها الفقهاء.

وهذا التبرير غير صحيح أيضًا، فالسيد محسن الأمين - الذي لا يشك أحد في

فقاوته - صدرت ضدّه البيانات والتصريحات الشديدة لأنه تحدث عن موضوع بعض الممارسات في الشعائر الحسينية.

إذا فالمسألة لا ترتبط بالمسائل العقديّة أو الفقهيّة، أو أن يكون المتحدّث فقيهاً أو لم يصل للفقاهة، أو أن تكون المسألة مختصة بالموضوعات أو بالأحكام، بل إنها تأتي من حالة الممانعة للتغيير، ورفض حرية الرأي والفكر.

وللتدليل على ذلك أشير إلى ما كتبه الشيخ الدكتور الوائلي رحمته الله في مذكراته «تجربتي مع المنبر»، كيف أنهم عندما أرادوا أن ينشئوا معهداً ومنتدى لتجميع الخطباء، ولترشيد الخطابة المنبرية، قامت ضدّهم الأصوات في النجف وحوصروا، لدرجة أن بعضهم بقي في منزله لم يغادره، خوفاً من الناس، وخشية من الإثارة التي صارت عليهم، فهذه الحادثة لا تدور حول مسألة عقديّة أو فقهيّة، وإنما هي مسألة أسلوبية عملية.

إن هذه القضية يواجهها المصلحون والعلماء، حيث إن هناك آراء ينبغي أن تطرح، يؤمن بها هذا العالم أو ذلك المصلح، لكن طرحها في المجتمع يُواجه بعواطف الناس، والأشد من ذلك أن يواجه باستغلال من أطراف منافسة، تثير عواطف الجمهور ومشاعرهم، لذلك يضع المصلحون أنفسهم أمام معادلة معقّدة، هل يتجرؤون في طرحهم لأرائهم، وبالتالي يدفعون الثمن، أو يبقون منطويين على آرائهم وأفكارهم؟

والوضع يختلف من مجتمع لآخر، فالأصل أن الإنسان إذا كان لديه رأي من المفترض أن يعبر عنه، وبخاصة إذا كان هذا الرأي يتوخّى منه صلاحاً وإظهاراً لفكرة مفيدة.

مميزة هذا العصر:

في بعض الأحيان تكون المضاعفات التي ستحصل من طرح الرأي الإصلاحي

شديدة الخطورة، ففي هذه الحالة قد يتردد البعض في طرح رأيه، لكن ما يبدو أننا الآن نعيش عصرًا يختلف عن العصور السابقة، وذلك من ناحيتين:

الناحية الأولى: في الماضي كانت حالة الجهل هي السائدة، فأكثر الناس لا يملكون مستوى تعليميًا متقدمًا، ولا يمتلكون انفتاحًا وثقافة، لذلك كانت العواطف والمشاعر هي التي تحركهم، أما الآن نعيش عصر الانفتاح والوعي والمعرفة، وهذا التغيير في المجتمع ينبغي أن يستثمره المصلحون في التعبير عن آرائهم، وطرح أفكارهم النقدية الإصلاحية.

الناحية الثانية: في الماضي كان من يحمل الآراء الإصلاحية هم أشخاص محدودون، والأغلبية مع الرأي السائد، أما الآن هناك تطور في الوسط العلمي والثقافي، لذلك فإن من يحملون الآراء التطويرية الإصلاحية ما عداوا قلة، لكن المشكلة أنهم لا يعرف بعضهم بعضًا، ولا يتعاونون فيما بينهم، لذلك فإن كل واحد منهم يبدو له كأنه يمثل موقفًا ضعيفًا أمام الحالة العامة، أما لو جهروا بآرائهم الإصلاحية للمجتمع، لأصبحت هناك شريحة واسعة تؤمن بهذه الأفكار والآراء وبالتالي تتغير المعادلة.

قد لا يكون التغيير فوريًا وحاسمًا، لكن ذلك لصالح حرية التعبير عن الرأي، والتغيير في بعض الآراء والأفكار.

إن هذين المتغيرين: سعة رقعة الوعي الاجتماعي، وسعة شريحة حملة الآراء التطويرية ينبغي أن يكون عاملاً دافعاً للمصلحين حتى يكونوا أكثر جرأة في طرح آرائهم وأفكارهم.



المطفّفون والكيل بمكيالين

يودّ كل إنسان في هذه الحياة أن يتمتع بحقوقه كاملة، وألا يُظلم أو يُعتدى على شيء من حقوقه، أو تُجرح أحاسيسه ومشاعره، وهذا أمر طبيعي، إلا أنه في المقابل ينبغي أن يتعامل مع الناس على هذا الأساس؛ لأن الإنسان لا يعيش وحده، وإنما هو فرد في مجتمع مكون من أفراد، وكما أنه يرفض أن يُعتدى عليه وتُجرح مشاعره فلآخرين أيضا كرامة ومشاعر.

للبعض في حياتهم ميزانان، ففيما يرتبط بهم يريدون أن يأخذوا حقهم دون نقص، ويطالبون الآخرين بمعاملتهم على أحسن ما يجب، إلا أنهم لا يلتزمون بإعطاء الحقوق إلى أهلها، ولا يراعون مشاعر الآخرين وأحاسيسهم.

إن من يتصف بهذه الخصلة السيئة، والحالة المنحرفة، يُطلق عليه القرآن الكريم مصطلح (التطفيف) و(المطففين)، إشارة إلى من يريد أن يأخذ حقوقه كاملة، في مقابل إنقاصه من حقوق الآخرين.

في القرآن الكريم سورة بهذا العنوان، تتحدث عن هذه الصفة، وتبدأ السورة بإعلان التهديد لهم بالهلاك والعذاب ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ

* لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿سورة المطففين، الآيات: ١-٦﴾، وكلمة المطففين جاءت من التطفيف، وأصلها من الطفّ، وهو جوانب الشيء وأطرافه، ولذلك سُمّيت كربلاء وادي الطف لوقوعها على ساحل نهر الفرات.

والطفيف في اللغة: الشيء النزر اليسير، واصطلاحاً: البخس في الكيل والوزن ونقص المكيال، وهو ألا تملأه إلى نهايته.

قيل إن سبب نزول السورة، قيام بعض تجار المدينة بالتطفيف في تجارتهم، حيث كان لبعضهم مكيالان: مكيال للشراء يكون أكبر، ومكيال للبيع يكون أصغر من ذلك.

وروى الطبرسي في مجمع البيان: إن رجلاً كان في المدينة يقال له: (أبو جهينة) كان له صاعان، يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فنزلت هذه الآيات^(١).

ثم إن الله سبحانه وتعالى يهدّد هؤلاء المطففين، ويتوعّدهم، ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؟ والظن في الآية الكريمة يأتي إما بمعنى اليقين، حيث ورد في القرآن استعمال لفظة الظن بهذا المعنى، يقول تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٤٩]، أي إنهم متيقنون بقاء الله، إلا أن المعنى المصطلح للظن هو الترجيح، وقد ذهب بعض المفسرين إليه في هذه الآية الكريمة.

والنتيجة: إن مجرد الاحتمال للقاء الله تعالى، كفيلاً بأن يجعل الإنسان يحذر من العذاب، ويتعامل مع الآخرين بإنصاف، فضلاً عن اليقين بذلك، الذي يفترض تحقّقه لدى المؤمنين.

(١) الشيخ الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص ٢٩١.

الكيل بمكيالين

والتطفيف وهو (الكيل بمكيالين) لا يقتصر على جهة أو مجال، بل له مجالات مختلفة، نقتصر على ثلاثة منها:

أولاً: المجال الاقتصادي، وهو المجال الذي عرضته السورة الكريمة، بأن يقوم الإنسان بإنقاص الوزن في حال البيع، بينما يأخذ حقه كاملاً حال الشراء. وهو لا ينحصر في الكيل والوزن فقط، فأَيَّ معاملة بينك وبين الآخرين، فإن إنقاص حقوق الآخرين يُطلق عليه (تطفيف).

ومما يتفرع عن المجال الاقتصادي تعاطي الإنسان مع عمله الوظيفي، فقد يكون متسيباً في عمله، بينما يتعامل مع موظفيه بتشدد، ويحاسبهم على الثانية، فهذا من مصاديق التطفيف، وهو كيلٌ بمكيالين، ومشمولٌ بالتهديد الإلهي.

ثانياً: مجال العلاقات الاجتماعية، حيث يتوقع الإنسان من الآخرين أن يحترموه ويُقدروه، ويُراعوا مقامه وحقوقه، بينما هو في المقابل لا يؤدي للآخرين حقوقهم في هذه الجوانب.

وهذا يشمل مختلف العلاقات الاجتماعية سواءً مع الأسرة، أو الجيران، وسائر العلاقات مع الناس، فتجده يتأذى من سماع كلمة خشنة تجاهه، لكنه إذا تحدث عن أحد فإنه يختار من الكلمات أسوأها وأخشنها، أو تجده يغضب إذا سمع أن فلاناً اغتابه، ولا يمنع نفسه من استغابة الآخرين، هذا تطفيف، وكيلٌ بمكيالين في العلاقات الاجتماعية.

ثالثاً: مجال التقويم والأحكام، حينما تحكم على فعل أو تصرف بمكيالين، حيث يُقوّم البعض الأمور التي ترتبط بهم تقويمًا عاليًا، ويغضون الطرف عن سلبياتها، بينما فيما يرتبط بالآخرين فإنهم يبخسون الناس حقوقهم، وهو خلاف الإنصاف الذي يدعو له القرآن الكريم ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [سورة الشعراء،

الآية: ١٨٣]. وهذا لونٌ آخر من ألوان التطفيف.

البعض إذا حدث شيء من جهته فإنه يدافع عنه، ويدعو للإنصاف، وعدم تضخيم الموضوع، لكن مثل ذلك التصرف لو صدر من جهة أخرى، فإنه هو الذي يأخذ الراية في التضخيم والتهويل.

وفي تجربة لقياس العدالة في التقويم والأحكام، اقتبس أحدهم مقطعاً من كتاب لكاتب معروف، ونسبه إلى عالم من العلماء ونشره عبر إحدى وسائل النشر، فاستقبله مؤيدو ذلك العالم بالثناء ووصفوا المقال بأنه من أروع ما كتب، وأنه يستحق الكتابة بماء الذهب.

ثم كشف الغطاء عن صاحب الكتابة الحقيقي، ولأصحاب ذلك العالم موقف مسبق منه، فأخذوا يشتمون الكاتب، ويصفون ما كتبه بالضعف والركاكة.

ومثله الذي يتناقض موقفه تجاه تكاليف الزواج، عندما يزوج أبنائه أو بناته، فبعض الناس يفرضون على المتقدم للزواج من بناتهم من الشروط ما يجعلهم يستغيثون، لكنهم في الوقت نفسه، إذا خطبوا لأبنائهم، فإنهم يستنكرون وجود شروط وطلبات عند أسرة الزوجة.

أو أنه يغفر لولده أن يسيء التعامل مع زوجته، بأن يشتمها، أو يجرح مشاعرها، بينما هو يرفض أن يخطئ زوج ابنته معها، بل لعله يقيم الدنيا ولا يقعدا بسبب اشتباه أو خطأ لعلّه غير مقصود، هناك يتكلم عن احترام الزوج، وهنا يتكلم عن حقوق المرأة، وأهمية احترامها.

ينبغي للإنسان أن تكون القيم والمعايير التي يُطبّقها على الآخرين، هي ذاتها التي يُطبّقها على نفسه ومن يرتبط به، وإلا فهو يُمارس التطفيف، الذي يتوعدّ الله تعالى أصحابه بالويل والهلاك والعذاب.

ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام:
 «اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَآكِرْهُ لَهُ
 مَا تَكْرَهُ لَهَا وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ
 وَاسْتَبِخْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَبِخُهُ مِنْ غَيْرِكَ وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ
 نَفْسِكَ»^(١).

التطيف في السياسة الدولية

وكما أن التطيف يتحقق على المستوى الفردي، فإن له مظاهر على المستوى الاجتماعي والدولي، فعلى المستوى الاجتماعي قد تجد جماعة يستنكرون على الآخرين حينما يتحدثون عنهم أو ضدّهم، بينما يُعطون لأنفسهم الحق في الحديث عن الآخرين وبيان نقاط ضعفهم، إذا كنت لا تقبل بأن يُطال رمزك بأي كلمة، فلماذا تسمح لجماعتك أن تتناول على رموز الآخرين؟ إن هذا من مصاديق التطيف.

وعلى المستوى الدولي، هناك مأساة كبرى تعيشها البشرية، حيث إن الدول الكبرى تكيّل بمكياالين، فعندما تكون لها مصالح ومطامع في مكانٍ ما، فإنها ترفع شعارات حقوق الإنسان، والالتزام بقرارات مجلس الأمن، والأمم المتحدة، والمواثيق الدولية، أما عندما تكون لها محاباة لجهةٍ أخرى فإنها تتغاضى عن كل ذلك.

وهذا ما نراه جلياً من الفظائع والمآسي التي تحصل في غزة، من قصفٍ للمستشفيات، والمنازل، ومؤسسات تابعة للأمم المتحدة، وتستخدم قنابل فسفورية محرمة دولياً، وكل ذلك على مسمع ومرأى من الدول المستكبرة، حيث لم يحصل في تاريخ البشرية فظاعات وجرائم بحجم هذه الجرائم والفظائع.

(١) نهج البلاغة. كتاب ٣١.

ومع ذلك كله، فلا عينٌ تطرف للإدارة الأمريكية ولا البريطانية، ويعتبرون أن إسرائيل تُدافع عن نفسها، وتقاوم الإرهاب، ويُصرون على أن الحرب لا تقف إلا إذا رفع المظلومون راية الاستسلام.

أين صوت المؤسسات الدولية والدول المستكبرة التي تتغنى بالمواثيق الدولية، وشعارات حقوق الإنسان؟! لماذا تغض الطرف عمّا يجري في غزّة من فظاعات مؤلمة، وكأن الضمير الإنساني قد مات في نفوس هؤلاء الحاكمين والمستكبرين!



المسؤولية الفردية واستقلال الشخصية

بعض المبادئ يُكرّر القرآن الكريم طرحها في أكثر من مورد من آياته الكريمة، مما يكشف أهميتها، وضرورة التأكيد عليها، ومنها مبدأ المسؤولية الفردية، وأن المرء مسؤول عن عمله، وأنه سيتحمّل دون غيره أعباء ونتائج عمله.

ففي خمسة موارد مختلفة يؤكّد القرآن الكريم هذا المبدأ، بتعبير واحد: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

والوزر هو الحِمل، وهو ما يحمله المرء على ظهره.

يقول تعالى في الآية ١٦٤ من سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

ويقول تعالى في الآية ١٥ من سورة الإسراء: ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

ويقول تعالى في الآية ١٨ من سورة فاطر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

ويقول تعالى في الآية ٧ من سورة الزمر: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

ويقول تعالى في الآية ٣٨ وما قبلها من سورة النجم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

كما جاء التأكيد على نفس المبدأ بألفاظ وتعبيرات أخرى في عدد آخر من الآيات الكريمة، فلماذا التأكيد على هذا المبدأ؟

لأن الإنسان كثيراً ما يغفل عن هذا المبدأ الأساس، فيقع في سلوك وتوجهات تقوده إلى الخطأ والانحراف، في تعامله مع ربه وتعامله مع الناس.

يوم لا تنفع القرابة

قد يندفع الإنسان نحو ذنب أو معصية لله تعالى، إطاعة لجهة تطلب منه ذلك، أو تجاوباً مع رغبة من يحبه أو يحترمه، أو له مصلحة معه، وهنا يحتاج الإنسان لاستحضار هذا المبدأ الذي تؤكد الآيات الكريمة، ومفاده أن هذا الآخر لن يتحمل عنك، ولن يتحمل معك يوم القيامة نتائج المعصية والذنب الذي تقوم به، فستقف للحساب وحدك أمام الله تعالى، تحمل أوزار الذنب الثقيلة على ظهرك، وتواجه العذاب والعقوبة الإلهية، ولن يبادر أحد ممن دفعك إلى المعصية لمساعدتك، ولو استغثت بهم ورجوتهم، ولو كانوا من أقرب المقربين إليك، وأعزهم عليك، كما تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [سورة فاطر، الآية: ١٨].

أبوك وأمك أو زوجتك أو أولادك أو أصدقاءك، لا ينبغي أن يدفعك التجاوب مع أحد منهم، للانزلاق نحو المعصية والخطأ، فإن أحداً منهم لن يفيدك يوم القيامة؛ لأن كل واحد منهم مشغول يومئذ بنفسه، ولا فرصة ولا قدرة لديه للاهتمام بغيره، يقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةَ * يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتُهُ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [سورة عبس، الآيات ٣٣-٣٧].

فاحذر أن تقع في المعصية بتأثير ارتباطاتك العائلية.

تقف أمام الله فرداً

وقد ينتمي الإنسان لجماعة أو حزب أو تنظيم أو مؤسسة، أو يتبع زعيماً دينياً أو سياسياً، وعليه أن يعلم أن كل الانتماءات يجب أن تكون تحت سقف القيم الدينية، فلا يدفعه انتماء، أو اتباع زعامة، لتخطي القيم والتعاليم الدينية؛ لأن الحساب يوم القيامة فردي وليس جماعي، مما يعني أن كل إنسان سيقف أمام منصبة القضاء الإلهي بمفرده، بعيداً عن قومه وجماعته، يقول تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [سورة مريم، الآية: ٩٥]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٩٤].

وحتى لا ينخدع أحدٌ بأيّ وعود وهمية، من أيّ جهة تدّعي أنها ستحميه يوم القيامة، وتغطي مخالفته ومعصيته، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ١٢].

ويا خسارة من يتبع زعامته أو جماعته أتباعاً أعمى، ويرتكب الموبقات والمحرمات لدعمها وتأييدها، يا خسارته حينما تبرأ منه يوم القيامة، وتنصل من أعماله وموبقاته التي قام بها دفاعاً عنها، يقول تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٦٦].

إن هذه الصور والمشاهد التي تعرضها الآيات الكريمة، تريد ترسيخ مبدأ المسؤولية الفردية، وأن يحفظ الإنسان استقلالية شخصيته عن الوقوع تحت تأثير الآخرين، على حساب عقله وضميره والقيم الدينية التي يؤمن بها.

وكما ورد عن الإمام عليّ (عليه السلام) أنه قال: «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»^(١).

(١) نهج البلاغة، حكمة ١٦٢.

لا يؤاخذ البريء بجرم غيره

في تعامل الإنسان مع الآخرين عليه أن لا يؤاخذ أحداً بما فعل غيره، فلا يؤاخذ البريء بجرم المذنب، كما كان سائداً في الجاهلية إذا اعتدى فرد من قبيلة، فإن كل أفراد قبيلته يكونون هدفاً لأخذ الثأر من قبل القبيلة الأخرى.

وما يزال البعض من الناس ينطلق من هذا القانون الجاهلي، فإذا حصل له نزاع مع أحد، فإنه يتخذ موقف العداة والقطيعة مع ذويه وأقربائه وأصدقائه، وإذا لم يعجبه كلام أو موقف من شخص، يتخذ موقفاً سلبياً من كل جماعته، وهنا يأتي مبدأ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ بأن لا تحمّل أحداً مسؤولية وعبء موقف وعمل غيره.

وهذا ما تقرره القوانين العادلة، ومواثيق حقوق الإنسان، التي ترفض العقوبات الجماعية، كالذي تمارسه إسرائيل بحق الفلسطينيين، فإذا انتفض أحدهم للدفاع عن أرضه وشعبه وحقوقه المشروعة، فإن إسرائيل لا تكتفي بسجنه أو قتله فقط، بل تصبّ جام غضبها على كل عائلته، حيث تهدم دارهم، وتتخذ بحقهم الإجراءات الظالمة.

وهذا ما رأيناه في عهد صدام في العراق، حيث كان يتخذ إجراءات قاسية ظالمة ضدّ عوائل بأكملها، إذا تصدّى أحد أبنائها لمواجهة طغيانه، فينالهم التهجير أو السجن أو القتل أو سائر الضغوطات المختلفة، التي تحوّل حياتهم إلى جحيم لا يطاق.

صلاح الفرد وسوء العائلة

ومن المشاهد التي يغيب فيها استحضر هذا المبدأ القرآني ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ على صعيد العلاقات الاجتماعية، مشهد المبالغة في التحفظ والتردد عند اختيار الزوج والزوجة، حين يكون أحد من عائلته أو عائلتها غير سويّ السيرة

والسلوك، حيث واجهتنا بعض الحالات التي يرغب فيها شاب الاقتران بفتاة يراها صالحة مناسبة له، لكن أهله يعترضون على اختياره لتلك الفتاة، ويمارسون مختلف الضغوط عليه لتركها، لا لإشكال أو خلل في ذات الفتاة، وإنما لأن أحدًا من أهلها متورط في بعض الانحرافات، فما ذنب الفتاة نفسها! وأينهم عن هذا المبدأ القرآني ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؟

وكذلك الحال في موقف بعض العوائل المتحفظ الرافض حين يتقدم لخطبة ابنتهم شخص صالح؛ لأن فلانًا من عائلته غير صالح!!

صحيح أن هناك أحاديث وروايات تحبذ اختيار الزوج والزوجة من العوائل الكريمة الأصل، لكن هذه النصوص تشير إلى وجود المقتضي والأرضية المهيأة للانحراف، في نفس من يتربى في عائلة تسودها أجواء الانحراف والفساد، ولا تعني حتمية حصول ذلك، فإذا تبين أن هذا الشخص قاوم ذلك المقتضي بموانع إرادته ووعيه، وتغلب على احتمالات التأثير بأجواء عائلته، وثبت صلاحه، فلماذا نتحفظ عليه ونعاقبه بذنب عائلته؟!

إن الأطباء مثلاً يتحدثون عن أمراض الدم الوراثية، لكنهم لا يجزمون بانتقالها وراثيًا لكل فرد من أفراد العائلة، والإجراء العقلائي هو القيام بالفحوصات اللازمة، فإذا تبين خلو الفرد من تلك التأثيرات المحتملة، يكون من الناحية الصحية سويًا سالمًا.

وكذلك الحال في الجوانب النفسية والسلوكية، فلو كان في عائلة الولد أو الفتاة خلل في السلوك والأخلاق، ورأينا سيرتهما صالحة مستقيمة، فهذا يعني تجاوزهما لتلك الآثار المحتملة. وهنا لا ينبغي التوقف والتردد في الزواج والاقتران.

بين الصفات الذاتية والصفات العائلية

ونسوق هنا شاهدًا ومثالًا مما ذكرته الروايات عن سعد بن عبد الملك الأموي،

ومعروف ما كانت عليه الأسرة الأموية أيام حكمها وتسلبها من فساد وانحراف، ومن عداة أهل البيت عليهم السلام، لكن الإمام محمد الباقر سمى سعد بن عبد الملك (سعد الخير)، وقد ورد أنه دخل يوماً باكياً على الإمام الباقر، فقال له عليه السلام: «مَا يُبْكِيكَ يَا سَعْدُ؟»

قَالَ: وَكَيْفَ لَا أَبْكِي وَأَنَا مِنَ الشَّجَرَةِ الْمَلْعُونَةِ فِي الْقُرْآنِ.

فَقَالَ لَهُ: لَسْتَ مِنْهُمْ، أَنْتَ أُمَوِيٌّ مِّنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَحْكِي عَنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾^(١).

على أن النصوص الواردة حول اختيار الزوج والزوجة، والصفات التي ينبغي الحرص عليها فيهما، تركّز بالدرجة الأولى على الصفات الذاتية في شخصيتيهما، من التدين والصلاح ومكارم الأخلاق، أما النصوص التي تتحدث عن صلاح العائلة وصفاتها فهي قليلة، والمعتبر منها سنداً أقل، إضافة إلى ما ذكرناه من أنها تدعو للانتباه من التأثيرات السلبية للعائلة على الولد أو الفتاة، فإذا تبين تجاوزهما لتلك التأثيرات فلا داعي للتردد والتوقف.

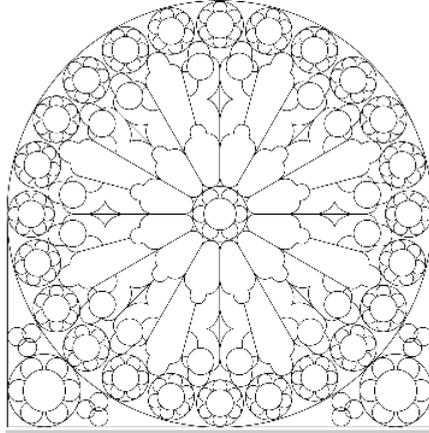
وخاصة في هذا العصر الذي انخفضت فيه تأثيرات الوراثة والتربية، بسبب عوامل التأثير العامة، وشعور الأفراد بذواتهم، وممارستهم لاستقلال الشخصية.

من اختار الضلال عليه وزره

يتمنى المؤمن أن يقود الآخرين إلى طريق الإيمان والخير، ويسعى لإقناعهم بالابتعاد عن الضلال والشر، لكن الآخرين لهم رأيهم وإرادتهم، فقد يتوقفون للاستجابة له فيفوزون، ويحظى هو بالثواب العظيم لهدايتهم، وقد يرفضون دعوته جهلاً وعناداً، أو لأي سبب آخر، وفي ذلك خسارة لهم، لكنهم وحدهم يحملون وزر ضلالهم، ولا يلحق المؤمن شيء من عذابهم وشقائهم، لذلك عليه ألا يتشجج

(١) الشيخ المفيد: الاختصاص، ص ٨٥.

ولا يتوتر نفسياً لموقفهم الرافض للهداية، وعليه أن يستحضر المبدأ القرآني ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، يقول تعالى: ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٥]، ويقول تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [سورة الزمر، الآية: ٧].



الفصل الرابع

في العلاقات الاجتماعية

إن مستوى العلاقات داخل أي مجتمع من المجتمعات ليست مسألة كمالية جانبية، بل هي عنصر أساس في تقرير وضع المجتمع، وتحديد مكانته وحركة مساره. فإذا كانت شبكة العلاقات الاجتماعية سليمة صحيحة، كان المجتمع مهياً للتقدم والانطلاق. وعندما تسوء حالة العلاقات داخل المجتمع، فستنعكس على مجمل أوضاعه تخلفاً وانحطاطاً.

لذلك، فإن أي حركة نهوض لا يمكنها أن تغفل شأن العلاقات الاجتماعية، فهي أرضية الانطلاق، ومحفز الإنتاجية والتقدم.

وحيثما انبثقت دعوة الإسلام في أرض الجزيرة العربية، فإنها ركزت على إعادة صياغة العلاقات داخل المجتمع العربي، لانتشاله من حالة الصراعات القبلية، والنزاعات المصلحية، ونمط العلاقات الجاهلية المتخلفة.

وفي حديث القرآن الكريم عن عملية التحول الحضاري الإسلامي في المجتمع العربي، يتناول التغيير في شكل العلاقات الاجتماعية، كأهم إنجاز حققته الدعوة، وكان مقدمة لنجاة العرب وخلصهم من الجاهلية والتخلف، يقول تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٣].

فالآية الكريمة تُذكر المسلمين بأهمّ نعمة أسبغها الله عليهم، وهي تغيير نمط علاقاتهم، من حالة التنافر والعداء، إلى مستوى الألفة والأخوة، فتمكنوا بذلك من تجاوز واقع السقوط والانحطاط، وأصبحوا أمة ذات رسالة وحضارة.

ويتكرر الحديث في الآية الكريمة عن تلك النعمة مرتين: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾. كما ينسب الله تعالى إلى نفسه إنجاز مهمة التآليف بين قلوبهم ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ لتعظيم هذه المهمة، ولأن برامج الوحي الإلهي وتوجيهاته، هي التي رفعتهم ونقلتهم إلى هذا المستوى المتقدم من الارتباط والعلاقات الإيجابية.

وكانت المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، نقطة انطلاق للمجتمع الإسلامي الجديد في المدينة المنورة بعد الهجرة، فقد جاء المهاجرون المسلمون من مكة إلى المدينة كضيوف غرباء، تخلوا عن عشائرتهم وأهاليهم وأموالهم، وهاجروا في سبيل الله لخدمة الدين الحنيف، فاستقبلهم الأنصار (أهل المدينة) بحفاوة وترحيب، انطلاقاً من هدي الإيمان، وحب الرسول ﷺ، ولتوثيق عرى الارتباط والتماسك في هذا المجتمع الجديد، أعلن الرسول ﷺ مبدأ الأخوة الإيمانية، ثم وضع صيغة عملية تمثل في المؤاخاة بين كل واحد من المهاجرين وآخر من الأنصار.

وحينما نقرأ الثورة الفرنسية، كطليعة للتغيير في أوروبا، نجد أن مسألة العلاقات داخل المجتمع، كانت في الصميم من اهتماماتها، ومن أولويات برامجها، ويتجلى ذلك في وثيقة حقوق الإنسان، التي أقرتها الجمعية الوطنية الفرنسية، أثناء الثورة الفرنسية، في ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ م.

ومجتمعاتنا اليوم، وهي تتطلع للنهوض والتقدم، في حاجة ماسّة للاهتمام بإصلاح شبكة علاقاتها الاجتماعية، بعدما أصابها الكثير من العوارض، مع تطورات الحياة المعاصرة.

إن سلامة العلاقات الداخلية، تنعكس إيجاباً على مختلف جوانب حياة المجتمع، فحركة المعرفة والفكر، تتقدم في ظل أجواء الحرية والتسامح، وأخلاقيات الحوار، واحترام الرأي.

والنشاط الاقتصادي يترعرع وينمو على أرضية التعاون وتضافر القوى والقدرات.

ومكانة المجتمع تتعزز في أنظار الآخرين حينما يكون أكثر تماسكاً وانسجاماً. والحالة النفسية لأبناء المجتمع، تكون أبعد عن الأزمات والعقد والأمراض، حين تصفو العلاقات، وتتقارب النفوس.

وهكذا تكون سلامة العلاقات هي الطريق إلى مجتمع أفضل.

ومن هنا تبرز أهمية السعي، وبذل الجهد، من أجل تنمية العلاقات الاجتماعية.



— حسن الظن وأثره في العلاقات الاجتماعية —

يحكم الإنسان على الأشخاص والأحداث التي تمر عليه بحكم معين، إما بالإيجاب، أو بالسلب، وهو في ذلك ينطلق من إحدى حالتين: إما بالعلم، أي أن عنده من الأدلة والشواهد ما يثبت به رأيه. وإما بالظن، أي إنه يبني حكمه على التخيلات، والاحتمالات التي قد تكون صحيحة أو غير صحيحة.

الأصل في الإنسان العاقل أن يبني أحكامه ومواقفه على العلم، كما يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ حينما تريد أن تحكم على شخص معين، أو أمر ما، فعليك التأكد والتثبت من صحة الأدلة والبراهين، القاضي مثلاً لا يصدر حكماً إلا إذا توفرت له الأدلة والبراهين التي يدّعم بها حكمه. والعالم الفقيه لا يعطي فتواه إلا بعد مراجعة الأدلة التي يحتاجها لاستنباط الحكم الفقهي للمسألة. وهذا يعطينا منهجية واضحة بيّنة، لما ينبغي أن يمارسه الإنسان المسلم في كل تفاصيل وجزئيات حياته، عندما يريد أن يحكم على شيء معين، فالأحكام ينبغي أن تبنى على أسس علمية.

أما أن يحكم الإنسان على شيء بغير علم، معتمداً على الأوهام والاحتمالات، فهو منهج خطأ، غالباً ما يؤدي بالإنسان إلى الانحراف عن جادة الصواب، فيضر نفسه وغيره.

وقيل في تعريف الظن: (ظنّ الشيء ظناً: علمه بغير يقين. والظن - علمياً - هو إدراك الذهن الشيء مع ترجيحه. وعرف في الفلسفة بالاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض)^(١)، ومتى ما وجد الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وزال الشك، تحوّل الظن إلى علم ويقين.

ولأن الظن يبقى متأرجحاً بين النفسي والإثبات، بين الصحة وعدمها، لذا ينهى القرآن الكريم عن اتباع الظن والتعويل عليه في الحكم على الآخرين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾. ولكن ما معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾؟ هل يعني أن بعضه الآخر ليس إثماً؟

المفسرون هنا يقولون إن كثيراً من الظن هنا ليست في مقابل قليل من الظن، فالآية هنا لا تقول خذوا فقط بعشرين بالمائة من الظن واجتنبوا الثمانين مثلاً، فهذا لا يتناسب مع توجيه الآية.

كثير من الظن، هنا تعني الظنون السيئة، فكلها ينبغي اجتنابها، وكأن مضمون الآية الكريمة يفصح عن أن الظنون التي تساور الإنسان تجاه الآخرين إما أن تكون حسنة وإما سيئة، ولكن أكثرها سيئة لذا ينبغي اجتنابها، أي اجتناب الظنون السيئة، وكلها داخلية في دائرة الإثم، أما الظنون الحسنة فلا إشكال فيها، بل لا ينبغي اجتنابها، لأنها توطن العلاقة بالآخرين.

الإثم:

أكثر الظنون التي تخالج الإنسان تجاه الآخرين سيئة، وكل ظن سيء إثم، فماذا يعني الإثم؟

بعض العلماء يرى أن الإثم هو العقوبة، ولكن الإشكال هنا؛ كيف يعاقب الإنسان على ما حصل له بغير اختيار، فالظن ليس حالة اختيارية؟

(١) الشيخ عبدالمهدي الفضلي: دروس في أصول فقه الإمامية، ص ٢٥٩.

لكنهم قالوا بأن العقوبة تقع مع ترتيب الأثر، فالظن بحدّ ذاته، وإن كان سيئاً، إذا لم يصاحبه أثر عملي سيئ فلا عقاب فيه، أما إذا أساء شخص ما ظناً بآخر، فسبّه، أو ضربه، أو اعتدى عليه انطلاقاً من ظنه السيئ به، فهنا يكون مأثوماً.

وبعض العلماء أشاروا إلى أن الإثم هنا يعني المفسدة والسوء، وليس العقوبة، وهكذا يندفع الإشكال الذي أثير حول هذه النقطة.

الظنون السيئة :

يمكننا تقسيم الظنون السيئة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

الظن بوقوع ما هو سيء بدون دليل وبرهان، بل بناء على احتمالات وأوهام، فيطلق حكماً على هذا أو ذاك بدون دليل قاطع. يضيع مني شيء مثلاً فأتهم شخصاً لها جس خطر بيالي، دون أن أثبت ذلك بدليل قاطع، وهذا أمر لا يجوز، فأصل التصور فيه ظلم لمن اتهمته، وترتيب الأثر عليه هو ظلم آخر.

القسم الثاني:

إساءة الظن من مقصد فعل هو في حدّ ذاته ليس سيئاً، كأن أرى إنساناً يعمل عملاً حسناً إلا أنه قابل للتفسير بسوء المقصد، وبدون دليل أسيء الظن في غايته. كأن أتهم إنساناً يصلي بأنه يرائي، دون أن يكون عندي دليل، وكأنني شققت عن قلبه، أو اطلعت على نيته.

فالتشكيك في غايات الناس أمر سيء ولا يجوز، وهو ظلم وادعاء بغير علم.

القسم الثالث:

إساءة الظن من مقصد فعل هو في حدّ ذاته سيئاً، لكنه يحتمل التبرير المسوغ، كأن ترى شخصاً يعمل عملاً ظاهره السوء، ولكن يحتمل أن يكون له مبرر شرعي،

وبدون أن تضع هذا الاحتمال تشكك في أمره وتسيء الظن فيه.

تري شخصاً مسلماً يأكل في نهار شهر رمضان، وهذا بلا شك عمل محرم، لكن هناك احتمالاً أن يكون هذا الشخص مريضاً أو مسافراً، أو له عذر ما، فلا يجوز أن تتهمه جزافاً بدون دليل.

ومن أجل أن تكون علاقتنا مع بعضنا حسنة، فلا بد أن نحمل بعضنا بعضاً على حسن الظن.

من وصايا أهل البيت:

هناك نصوص كثيرة تؤكد أهمية حسن الظن بين الناس، وتحذّر من إساءة الظن بالآخرين، وذلك عمل بأصالة الصحة، وحمل عمل المسلم على الصحة، مثال ذلك أن تذهب إلى القصاب لتشتري منه لحماً، فهناك احتمال بأن يكون الذبح غير شرعي، لكن لا يصح أن تحمله على هذا المحمل.

جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حَرَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِ ثَلَاثًا: دَمَهُ، وَمَالَهُ، وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنُّ السَّوِّءِ»^(١) إساءة الظن بالآخرين كالاغتداء عليهم، وسرقة أموالهم، وهتك أعراضهم، فكلها أمور منهي عنها شرعاً. إلا أن سوء الظن اعتداء معنوي، والاعتداء على دماء الناس، وسرقة أموالهم اعتداء مادي.

والأسف كل الأسف أن الاعتداء على سمعة الناس وخذش شخصياتهم أصبح وكأنه أمر طبيعي في المجتمع، وهو خطأ كبير!

وعن رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»^(٢).

ويروى عن أمير المؤمنين علي ﷺ كلمة يحذّر فيها من سوء الظن، وأن الشخص

(١) محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث ٣٤٢٠.

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ج ٤، حديث ٦٧٢٤.

الذي يحمل هذه الصفة لا يستطيع أن يصنع علاقات سليمة مع الناس: «مَنْ لَمْ يَحْسُنْ ظَنَّهُ اسْتَوْحَشَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ»^(١).

وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «ضَعَّ أَمْرَ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِهِ حَتَّى يَأْتِيكَ مَا يَغْلِبُكَ مِنْهُ»^(٢) فأنت مطالب بتفسير أي عمل بأحسن تفسير، إلا أن تكون هناك أدلة قاطعة، أو ما يرجح الاحتمال السيئ بشكل واضح، فلا ينبغي أن يكون الإنسان ساذجاً أيضاً.

وعنه عليه السلام: «وَلَا تَظَنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَخِيكَ سُوءًا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمُولًا»^(٣) إذا سمعت كلمة من أحد وهي تحتل السوء بنسبة أكبر من الخير، فأنت مطالب بحملها على المحمل الحسن، وإن كانت نسبة احتمالها قليلة.

وروي عنه عليه السلام أنه قال ذات مرة، وهو يجيب سائلاً عن المسافة بين الحق والباطل، أنه وضع أصابعه الأربعة بين عينه وأذنه ثم قال: «مَا رَأَيْتُهُ عَيْنَاكَ فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَا سَمِعْتُهُ أُذْنَاكَ فَأَكْثَرُهُ بَاطِلٌ»^(٤).

وعنه عليه السلام: «اطْلُبْ لِأَخِيكَ عُذْرًا فَإِنْ لَمْ تَجِدْ لَهُ عُذْرًا فَالْتَمِسْ لَهُ عُذْرًا»^(٥).

ويُنقل عن أحد العلماء هذه المقولة: (لو رأيت شخصاً وبيده قدح به خمر وهو على فمه فإنك يمكن أن تحمله على أنه مجرد مضمضة أو أنه لم يعلم أنه خمر).

هكذا يربي الإسلام الإنسان على أن يكون حسن الظن بالآخرين.

وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «حُسْنُ الظَّنِّ رَاحَةُ القَلْبِ وَسَلَامَةُ الدِّينِ»^(٦).

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص ٤٦٥، حكمة ٨٤٦٣.

(٢) الكافي، ج ٤، ص ٩٤، حديث ٣.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٩٦، حديث ١١.

(٤) المصدر نفسه، ج ٧٢، ص ١٩٦، حديث ٩.

(٥) المصدر نفسه، ج ٧٢، ص ١٩٤، حديث ٤.

(٦) غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١، ص ٣٣٨.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «حُسْنُ الظَّنِّ أَصْلُهُ مِنْ حُسْنِ إِيمَانِ المرءِ
وَسَلَامَةِ صَدْرِهِ»^(١).

حسن الظن وحاجتنا إليه :

ما أخرج مجتمعاتنا إلى الأخذ بحسن الظن، سواءً على المستوى الفردي أو بين الجماعات، فنحن نواجه مشكلة في العلاقة بين الجماعات، كل جماعة تسيء تفسير تصرف الجماعة الأخرى، ولعلّ تصرفاً فردياً يصدر من أحد الأفراد فيحسب على الجماعة بأكملها، وهذا غير صحيح، من أخطأ هو من يتحمل المسؤولية.

ترى من يحكم على عمل ما بأنه حسن ويدعمه بكل قوة ما دام من قام به شخص من دائرته، ولكن متى ما قام شخص ما بنفس العمل من دائرة غير التي ينتمي إليها، فالحكم هنا يكون معاكساً.

ينبغي لكل إنسان مؤمن عاقل أن يتجاوز هذه الحالة، وينظر إلى الآخرين نظرة إيجابية، ولو جال في خاطره تصور خطأ على شخص ما، فعليه ألا يبنّي عليه موقفاً قد يضر أو يسيء به إلى الآخر، فذاك إثم وظلم نهى عنه الشرع القويم، ويرفضه العقل السليم.

(١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٩٦، حديث ١٢.



التودّد إلى الناس



حينما يمتنّ الله سبحانه وتعالى على أحدٍ من عباده بشيءٍ، ويعده بذلك الشيء، فلا بدّ أن يكون ذلك الشيء عظيماً، والآية الكريمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [سورة مريم، الآية: ٩٦].

تؤكد أنّ الله سبحانه وتعالى يعدّ عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ويمنّ عليهم بنعمة كبيرة من نعمه، تلك النعمة هي أنه سيجعل لهم وداً في القلوب والنفوس. فلا بدّ أن يكون وجود المحبة والمودة للإنسان في قلوب الآخرين شيئاً مهماً، ولو لم يكن شيئاً مهماً لما وعد الله به صفوة عباده، ولما نسب وجود ذلك الودّ إلى ذاته سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، الذين يؤمنون بالله، ويؤمنون بالمبادئ الدينية، والقيم الأخلاقية السامية، هؤلاء الذين يمتلكون صفة الإيمان وهي صفة عقلية نفسية؛ لأنّ الإيمان مصدره العقل، ومقرّه النفس. والذين يمتلكون إلى جانب هذه الصفة، صفة أخرى، هي ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي حين تتحول هذه الصفة النظرية النفسية إلى سلوك وعمل وممارسة، أما إذا بقيت مجرد عقيدة، ولم تتحول إلى سلوك خارجي، فإنّها لا تعتبر ذات قيمة وتأثير، فالقيمة والفائدة في انعكاسها على الحياة العملية، لذلك فإنّ الله سبحانه لم يكتف بصفة الإيمان ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بل أردفها

﴿وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

صحيح أن الإيمان يفترض أن يدفع للعمل الصالح، لكن بعض الناس قد يكتفون بالإيمان النظري، وبالحالة العقديّة، دون أن يترجم ذلك إلى عمل. الله سبحانه وتعالى يقول إن من يكتفي بالإيمان النظري العقدي في قلبه، ولا يلتزم معطيات هذا الإيمان، فإن ذلك لا يؤدي إلى نتيجة، أي أن الإيمان يجب أن يكون إلى جانبه العمل المنبثق من حالة الإيمان، هؤلاء الذين يمتلكون هاتين الصفتين سيجعل لهم الله سبحانه ودًّا، والودّ هو المحبة والمودة، أي أن الله سبحانه سيجعل لهم المحبة والمودة في قلوب الناس.

﴿سَيَجْعَلُ﴾ هذا الجعل كيف يكون؟ وللإجابة يمكننا تصور ذلك على نحوين:

النحو الأول: الجعل الغيبي: أي إن الله سبحانه وتعالى سيجعل القلوب منجذبة إليهم بتأثير غيبي، وهناك روايات تؤيد هذا المعنى: ورد في حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أحبَّ الله العبدَ نادى جبريلُ: إن الله يحبُّ فلانًا فأحبِّبه، فيُحِبُّه جبريلُ، فينادي جبريلُ في أهل السماء: إن الله يحبُّ فلانًا فأحبُّوه، فيُحِبُّه أهلُ السماء، ثم يُوضَعُ له القبولُ في الأرض»^(١).

والسؤال: كيف يحبُّ الله عبدًا من عباده؟ إنّه جلّ وعلا لا يحبُّه لمنظره أو جماله أو ماله، إنما يحبُّه؛ لأنه يستحق المحبة، لصفاء قلبه، لخلوص نفسه، لسلامة سلوكه وعمله، فيحصل التأثير الغيبي الإلهي، أي: يحبُّه أهل السماء، ويجعل الله سبحانه له جاذبية فتجذب نحوه القلوب والنفوس في الأرض.

النحو الثاني: الذي يمكن أن نفهم به هذا الجعل: أن طبيعة الإيمان والعمل الصالح، تجعل الإنسان في موقع المحبوب عند الناس.

فالناس متى يحبُّون شخصًا؟

(١) صحيح البخاري. ج ٤، ص ٩٥، حديث ٦٠٤٠.

يحبونه إذا رأوه صالحًا، محسنًا، طيبًا، فالقلوب تحبّ شخصًا كهذا. المؤمن الذي يعمل الأعمال الصالحة، طبيعة شخصيته وسلوكه تجذب النفوس إليه، فهو مثلًا يفترض أن يتصف بالإحسان إلى الآخرين واحترامهم، وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «جِبَلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا»^(١)، فمن الطبيعي أن يحبه الناس، لأنه محسن، ولأنه يخدم الآخرين، ويحترمهم، ولا يسيء إليهم، بل يحسن معاملتهم، إن سلوك الإنسان المؤمن وطبيعة شخصيته تجعله محبوبًا لدى الآخرين، حين يكون ملتزمًا أخلاق الإيمان وآدابه.

بعض الأحيان يتخذ الإيمان في أذهاننا صورة معينة، مثلًا نقول: إن المؤمن هو ذلك الذي يذهب إلى المسجد، ويتعبّد، ويطيل في صلاته، ويصوم، ولا يفكر أنه يجب أن يكون بشوشًا، حلو المعشر، كريم الأخلاق والطباع، لذلك نصاب بالعجب عندما يقال إن المؤمن محبوب. فمثلًا هناك أناس مؤمنون - حسب تصورنا للإيمان - لكنهم غير محبوبين، حتى أقرباؤهم لا يودّونهم، لذلك نحتاج أن نصحح صورة المؤمن في أذهاننا.

هل المؤمن هو من يصلي، ومن يذهب للمسجد، ويقرأ الأدعية والقرآن، ويصوم فقط؟!

هذه ليست الصورة الكاملة للإيمان، إنّما الصورة الكاملة تكون بإفشاء السلام وإطعام الطعام، من يكون حزنه في قلبه وبشره في وجهه، من يحسن إلى الناس، من لا يسيء إليهم، فمن يلتزم الأخلاق الحميدة يحبه الناس، حتى لو لم يظهروا محبتهم له، نحن نجد في سيرة رسول الله ﷺ وفي سيرة الأئمة الطاهرين عليهم أفضل الصلاة والسلام، حتى أعداؤهم الذين يكيدون لهم، في أعماقهم إعجاب وانبهار بهم، لكن المصالح والصراع الدنيوي جعلهم في موقع المناوأة والعداوة!

(١) من لا يحضره الفقيه. ج ٤، ص ٣٨١، حديث ٥٨٢٦.

الإنسان المؤمن الملتزم بضوابط الإيمان في أخلاقه وسلوكه، له محبة في النفوس، حتى من يعاديه ظاهراً في أعماق نفسه وقلبه لديه انشداد نحوه، ذلك أن المؤمن يهتم بكسب محبة الناس ومودتهم، ولدينا نصوص كثيرة تتحدث حول قيمة وأخلاقية التودد إلى الناس.

معنى التودد

والتودد يعني: طلب المودة أي أن تسعى لأن يحبك الناس، الروايات والنصوص الدينية تطلب من الإنسان المؤمن أن يسعى لكسب قلوب الناس ومحبتهم، وإن كانت بعض هذه المفاهيم الأخلاقية السلوكية تكاد تكون مغيبة في وعينا وأفكارنا، في الوسط الديني، نحن نعرف فضل الصلاة والزيارة والعزاء، وفضل كثير من العبادات والمستحبات، لكن هناك من المفاهيم والسلوكيات ما ترتبط بالتعامل مع الناس، والتركيز عليها في الوسط الديني قليل، وهذا يجعل الإنسان المؤمن مهتماً ببعض العبادات الطقوسية، لكنه غير مهتم بالمعاملة مع الناس، وحسن العلاقة معهم، هذا إيمان مبتور «إيمان ببعض الكتاب» كما يقول تعالى ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٨٥].

لنلق نظرة على بعض هذه النصوص، ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الْإِيمَانِ التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ»^(١)، لا شيء أهم بعد الإيمان بالله سبحانه من أن تسعى لكسب محبة الناس، في رأس القائمة والأولويات، أن تتصرف بشكل يحبك ويودك الناس.

(١) محمد بن الحسن الحر العاملي، وسائل الشيعة. ج ١٦، ص ٢٩٥.

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ التَّحَبُّبُ إِلَى النَّاسِ»^(١) هنا دعوة إلى التحبب إلى الناس كافة - لم يقل إلى المؤمنين أو المسلمين أو الأقرباء - إنما الناس بشكل عام، وعنه ﷺ: «التَّوَدُّدُ نِصْفُ الْعَقْلِ»^(٢) أي إن كسب محبة الناس، يمثل ٥٠٪ من استخدام العقل، ومن لا يسعى لمحبة الناس نصف رأس مال عقله مجمّد. وعن أمير المؤمنين علي ﷺ: «أَوَّلُ الْعَقْلِ التَّوَدُّدُ»^(٣).

وجاء عن رسول الله ﷺ: «التَّوَدُّدُ نِصْفُ الدِّينِ»^(٤) ليس فقط نصف العقل بل نصف الدين، ولكن ما معنى نصف الدين؟ الدين له هدفان: حسن العلاقة مع الخالق، وحسن العلاقة مع المخلوقين.

فنصف الدين أن تتعامل مع الله بشكل سليم، يتمثل في عبادة الله والخضوع له. أما النصف الثاني فهو المعاملة الطيبة مع الناس.

إن المودة تخلق وشيجة مع الآخرين تشبه الرحم والقرابة.

ورد عن أمير المؤمنين ﷺ أنه قال: «الْمَوَدَّةُ قَرَابَةٌ مُسْتَفَادَةٌ»^(٥). أي كلما كسبت مودة أحدٍ اكتسبت قرابة جديدة، وعنه ﷺ: «الْمَوَدَّةُ إِحْدَى الْقَرَابَتَيْنِ»^(٦)، فالقرابة إما عبر الرحم أو عبر المودة والمحبة، بل هناك نصوص تشير أن مكانة المودة أكثر من الرحم، عن أمير المؤمنين ﷺ: «الْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ نَسَبٍ»^(٧)، وفي رواية أخرى «الْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ رَجِيمٍ»^(٨).

(١) بحار الأنوار. ج ١، ص ١٣١.

(٢) من لا يحضره الفقيه. ج ٤، ص ٤١٦، حديث ٥٩٠٤.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ١١٩، حكمة ٥٤٨.

(٤) بحار الأنوار. ج ٧١، ص ٣٩٢.

(٥) من لا يحضره الفقيه. ج ٤، ص ٣٨٩.

(٦) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٦٥، حكمة ٢٠٥٣.

(٧) المصدر نفسه، ص ٦٥، حكمة ٢٠٥٥.

(٨) المصدر نفسه، ص ٦٥، حكمة ٢٠٥٤.

وهناك روايات تقارن بين القرابة الرحمية وقرابة المودة: عن رسول الله ﷺ: «الْقَرِيبُ مَنْ قَرَّبَتْهُ الْمَوَدَّةُ وَإِنْ بَعُدَ نَسَبُهُ، وَالْبَعِيدُ مَنْ بَعَدَتْهُ الْمَوَدَّةُ وَإِنْ قَرَّبَ نَسَبُهُ»^(١). وفي كلمة جميلة لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «كُلُّ قَرَابَةٍ تَحْتَاجُ إِلَى مَوَدَّةٍ»^(٢)، كونه قريبك: أخوك أو ابن عمك أو ابن خالك، هذا لا يكفي ما لم تكن هناك ألفة ومحبة، وفي كلمة أخرى عنه عليه السلام: «تَحْتَاجُ الْقَرَابَةُ إِلَى مَوَدَّةٍ، وَلَا تَحْتَاجُ الْمَوَدَّةُ إِلَى قَرَابَةٍ»^(٣)، وعنه عليه السلام: «رُبَّ أَخٍ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ»^(٤).

وعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قال: «أَنْفَعُ الْكُنُوزِ مَحَبَّةُ الْقُلُوبِ»^(٥) محبة القلوب هو أهم رصيد، لذلك يبذل الإنسان ماله وجاهه وجهده من أجل أن ينال المحبة والمودة من الآخرين.

(١) الكافي. ج ٢، ص ٦٤٣.

(٢) بحار الأنوار. ج ٧٥، ص ٧.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢٠، ص ٣٠٥، حديث ٤٨٩.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٢١٤، حكمة ٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ١١٨، حكمة ٥٢٠.



اللمز والتناز من مساوئ الأخلاق

حتى تكون الأجواء في المجتمع الإسلامي صافية نقية، تساعد الإنسان على التأخي والتعايش مع الآخرين، فإن الإسلام يؤكد مجموعة من المبادئ الأخلاقية، التي تحفظ لكل إنسان في المجتمع مكانته واحترامه.

احترام الإنسان من قبل الآخرين يدخل على نفسه السرور، وينمي فيه احترام الناس، فتصبح حالة الاحترام في المجتمع متبادلة.

أما إذا أسىء لشخص، وهذا الشخص رد الإساءة بالإساءة، عندها تكون الأجواء معكّرة، وتنتشر فيها هذه السمّة السيئة. وهنا تجد دقة القرآن الكريم في ألفاظه وعباراته، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١١].

وهل يلمز الإنسان نفسه؟

نعم يلمز الإنسان نفسه بطريق غير مباشر، فإذا لمز غيره فهو يشجع على أن يُعامل بنفس المعاملة، ويشجع على انتشار هذه العادة في المجتمع، وبلا شك أن هذا الأسلوب سوف يستخدم معه عاجلاً أم آجلاً، من الشخص الذي أساء له أو من غيره.

الآية الكريمة تتحدث عن مفردتين من المفردات السيئة السلبية، التي تسقط حالة الاحترام بين الناس، وهما (اللمز) و (التناز).
اللمز:

واللمز هو إغابة الشخص بمحضره، وقد يكون إشارة بالرأس أو العين أو الشفة، مع كلام خفي. وهو ممارسة سيئة، وعدوان وقح، في التعامل مع الآخرين. أن تعيب شخصاً بوجهه، وبمحضره من الآخرين، وتنتقده بكل قسوة، وبلا مبالاة بمشاعره وأحاسيسه، وبالتالي تدفعه إلى التفكير في الانتقام، وتؤجج في نفسه غضباً وسخطاً على من وجه إليه هذه الإساءة، وعلى المجتمع الذي كان شاهداً صامتاً على الاعتداء عليه.

لا يخلو إنسان من العيوب ونقاط الضعف، فكل إنسان في هذه الحياة معرض لذلك، يقول الإمام الشافعي في الشعر المنسوب إليه:

لسانك لا تذكر به عورة امرئ فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك معايها فصنها وقل يا عين للناس أعيُن

وكما أن للآخر نقاط ضعف، فلك مثل الذي له ولربما أكثر، فلا تنظر وتذكر عيوب غيرك ناسياً أن لك عيوباً، وللناس أعيُنًا ينظرون بها إلى عيوبك، ولهم ألسن يتحدثون بها عنك، فتعاملك مع الناس سوف ينعكس عليك، فتعامل معهم بالحسنى.

إذا رأيت عيباً من أحد، فحاول أن تنصحه وتوجهه على انفراد، لا أمام الناس حتى لا يظن بأنك تريد الإنقاص من شأنه وتحقيره، فذاك يؤجج نيران العداوات ويوقظ الفتنة.

التناز:

والنبز هو إطلاق الألقاب السيئة المستهجنة على الآخرين، وهو أمر سيء لا يرضيه أحد، والأسوأ إذا كان الأمر بين الجماعات ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي لا يلقب بعضكم بعضاً بلقب سيء يغضب ويؤجج الطرف الآخر، وفي بعض الأحيان قد يؤدي ذلك إلى نشوب حالة من القطيعة والاحتراب.

التناز بين الأفراد:

كثيراً ما كنا نرى كيف يطلق شخصٌ ما لقباً على شخص آخر، بسبب شجار أو سخرية أو لأي سبب، ويبقى هذا اللقب سمة يلاحقه أينما حلّ، ولربما حتى بعد موته!

اعتاد الناس على هذا الأمر، دون أن يتنبهوا إلى آثاره السلبية على النفس وعلى المجتمع، ودون أن يدركوا أن هذا الأمر يدخل في التناز بالألقاب، الذي ينهى عنه القرآن الكريم.

يلقبون شخصاً لعلّة فيه، كالعرج فيدعونه بالأعرج، ولا يعرف بعدها إلا بهذه التسمية، وهناك شواهد كثيرة لشخصيات مشهورة، كانت سبب تسميتهم إما لمرض أو لعاهة في المظهر كالأعرجي، والأصمعي، والجاحظ، أو لحادث معين كالمبرد العالم النحوي الكبير.

وهكذا أطلقت على بعض الأشخاص ألقاب أصبحوا يعرفون بها، وصارت أسماء عوائل، يتجرع مرارتها الأبناء.

التناز بين القبائل والجماعات:

يبدو أن هذه العادة كانت منتشرة في الجاهلية، حيث كانت بعض القبائل تحاول أن تفتعل لقباً للقبيلة الأخرى، إذا كان بينهما تنافس أو نزاع، بمناسبة أو بدون مناسبة،

ويثيرون غضبهم بذلك اللقب، وفي بعض الأحيان كانت تقع حروب بسبب تلك الألقاب، كما هو الحال للقبيلة التي أطلق عليها لقب (أنف الناقة) وهو لقب جدتهم جعفر بن قريع، وذلك أن أباه نحر جزورا، فقسم بين نسائه، فبعثت جعفر أمه، فأتاه وقد قسم الجزور، ولم يبق إلا رأسها وعنقها فقال: شأنك به، فأدخل يده في أنفها وجعل يجرها، فلقب به، فكانوا يغضبون منه، وحصلت من جرّاء ذلك مشاكل ونزاعات، إلى أن مدحهم (الحطّية) بقصيدة قال فيها:

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم وهل يساوى بأنف الناقة الذنب
فصاروا يتناولون بهذا النسب^(١).

هذه الحالة كانت متداولة في المجتمعات الجاهلية وبقيت آثارها، حيث لا تزال قائمة في المجتمعات التي يتحفّز بعضها للإساءة لبعض، ويطلقون على بعضهم ألفاظاً ذات إيحاءات سلبية، دينية أو سياسية أو اجتماعية، من أجل أن تبقى هذه الصفة، ويعاب بها أهلها كلما ذكروا.

هذه الحالة السلبية، كثيراً ما تسببت في خلق نزاعات وخلافات بين أهل بلد وآخر، وجماعة وأخرى.

في الأوساط الدينية :

الإنسان المسلم المتدين عنده كتاب عظيم يعلمه التحلي بالخلق الكريم، وعنده من التعاليم الإسلامية ما يجعل منه إنساناً في أعلى مراتب الكمال، لو اتبعها ونفذها. فكيف يكون عذره إذا ساء خلقه مع الآخرين، والأمر الأشدّ ضراوة أن يكون ذلك باسم الدين والدفاع عنه!

كان يطلق مثلاً على أتباع أهل البيت لقب (الرافضة، أو الروافض) من قبل

(١) عبدالقادر بن عمر البغدادي، خزانه الأدب ولب لباب لسان العرب، ج ٣، ص ٢٧١.

مناوئهم وذلك للإنقاص من شأنهم واستثارتهم، وقد كان ذلك يؤذيهم ويزعجهم، حتى إن الإمام جعفر بن محمد الصادق، ومن باب التخفيف عنهم ومواساتهم وتهدئتهم حتى لا يستدرجوا للنزاع والشقاق، كان يقول: «مَا لَهُمْ وَلَكُمْ، وَمَا يُرِيدُونَ مِنْكُمْ؟ وَمَا يَعِيبُونَكُمْ؟ يَقُولُونَ: الرَّافِضَةُ! نَعَمْ وَاللَّهِ رَفَضْتُمُ الْكُذِبَ، وَاتَّبَعْتُمُ الْحَقَّ...»^(١).

لكن يبقى هذا اللقب نيزاً للشيعنة من قبل الآخرين، وهو مصداق للنهي القرآني ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، ولكن مع الأسف لا يزال رائجاً عند بعض الأطراف، نسمعه في الإذاعات ووسائل الإعلام، ونقرأه في بعض الفتاوى والكتب الدينية!

وبعض الشيعة يطلقون على السنة لقب (النواصب) وهو إنما ينطبق على المبغضين لأهل البيت عليهم السلام، وليس على أهل السنة، وإطلاقه على السنة مصداق للتنازع بالألقاب.

وفي داخل المذهب الواحد قد تجد الأمر قائماً، حيث تطلق فئة على فئة أخرى من نفس المذهب لقباً تنقص به من قدرهم وتحقرهم، هؤلاء الناس أتباع فلان من الناس، وهؤلاء أتباع التوجه الكذائي.

أن تنسب جماعة إلى مرجع معين أو قائد لهم، أو إلى توجههم هذا لا يعيب، بل إن كل إنسان يفتخر بمن هو تابع له، ولكن أن يكون قصدك الإنقاص والتحقير فهذا لا يجوز، ولا يقبل من إنسان مؤمن، وعيب أن يسود في أوساطنا الدينية.

ينبغي أن نكف عن هذا الأمر، وأن نتنبه إلى آثاره السلبية التي تجر لنا الويلات.

الأثر السيئ:

هذه الحالة السلبية ينبغي مكافحتها في المجتمع، حتى يعيش الناس حالة احترام

(١) بحار الأنوار: ج ٢٦، ص ٣٦، حديث ٦٦.

متبادل فيما بينهم، وهو أهم ما ينبغي أن يشعر به الإنسان، فإذا لم يحترم المجتمع أفرادَه فأين يجدون الاحترام حينئذ؟!

وإذا درسنا عمق المشكلة النفسية عند الإنسان الشرقي، الذي يعيش حالة من الضعف والذلّ والهوان، سنجد أن السبب في ذلك أنه نشأ في ظل الهوان، وصار يواجه إذلالاً مفروضاً عليه، وبلا مبالاة!

فلا يخاطب باحترام في صغره، وعندما يكبر ويدخل المدرسة يعامل بالذلّ، حيث أساليب التربية الخاطئة، كالضرب والإهانة والتوبيخ القاسي، كان الأب في السابق يذهب بابنه إلى المعلم ويوصيه: خذ له لحمًا وأرجعه لي عظيمًا!، أي عذبه كيف تشاء، المهم أن يتعلم!

وفي المجتمع يواجه الطفل هذا الأمر مع من يخالطهم، فكيف نتوقع منه أن يكون قوي الشخصية؟!، وأن يكون ذا معنويات رفيعة، وثقة عالية! بينما نجد في المجتمعات المتقدمة عكس ذلك تمامًا، وقبل ذلك في تعاليم الإسلام وآدابه، حيث كان الأئمة يكتنون أطفالهم وينادونهم بكناهم، ويأمرون الناس بذلك فقد وري عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّا لَنُكْنِي أَوْلَادَنَا فِي صِغَرِهِمْ مَخَافَةَ النَّبِيِّ أَنْ يَلْحَقَ بِهِمْ»^(١).

وجاء عن الإمام الرضا عليه السلام: «وَكُنَّهٖ بِأَحْسَنِ الْكُنْيَةِ»^(٢).

ينشأ الطفل وهو يرى من حوله ينتقصون منه، ولا يعطونه أهمية تذكر، لذلك عندما يكبر تجده يتذمر ويتمرد، ليثبت أن له شخصية ورأيًا، ولا يقبل الإقصاء، وتلك نزعة نفسية. وقد تكون ثورته هذه متأخرة بعد أن أخذت أساليب التربية في طفولته مأخذها منه.

(١) الكافي، ج ١١، ص ٣٧١، حديث ١١.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٠٤، ص ١١٦، حديث ٤٣.

حتى تسمية الأطفال عندنا تنم عن الانتقاص من شأنهم، كما يقول أحد الكتاب والباحثين فالبعض يسمون الطفل (عَيْل)، والبعض يقولون (ورع)، أو (جاهل)! وكلها أسماء تقترب من نفس المضمون المشعر بالقصور والجهل والتحقير.

من المهم جداً أن نشعر بالمسؤولية تجاه بعضنا بعضاً، فاحترام أبناء المجتمع لبعضهم بعضاً هو تعزيز لقيمتهم في ذاتهم، بدءاً من مرحلة الطفولة، أما إذا أهان كل واحد الآخر فإن الجميع يعيش وضع الإذلال والهوان، فهذه الآيات الكريمة تنبهنا إلى هذه الحقيقة ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.



الغيبة وتدمير العلاقات الاجتماعية



لا شيء أهم من أن يعيش الإنسان في مجتمعه آمناً على نفسه وماله وعرضه، ذلك لأن الإنسان شخصٌ وشخصية. وإذا كانت سلامته الجسمية والمالية هي قوام شخصه ووجوده المادي، فإن سلامته المعنوية، وحفظ سمعته، هي قوام شخصيته المعنوية والاجتماعية، لذلك فإن الإسلام بقدر ما يشدد على حرمة الإنسان فيما يرتبط بجسمه وماله، فإنه أكثر تشدداً بالنسبة لما يرتبط بحرمة مكانته وجاهه وسمعته.

إن الإنسان إذا كان يعيش في مجتمع يواجه فيه اعتداءً جسيماً، فإنه بالتأكيد لا يحس بالأمن والاستقرار، وكذلك لو تعرض إلى اعتداء على مكاسبه المادية كتهب منزله، أو سلب أرضه، أو سرقة أمواله فلن يحس بالأمن والاستقرار، وكذلك الحال لو انتهكت كرامته وسمعته، بمعنى أنه يتعرض للتجريح والتشهير، فهذا أيضاً لا يحس بالأمن في ذلك المجتمع، ومجتمعات كهذه لا تجذب من يعيش فيها، ولا ترغبهم في حبها والانتماء إليها.

المجتمعات الغربية بالرغم من أن الفلسفة السائدة فيها هي فلسفة مادية، لكنها وضعت قوانين تحفظ حقوق الناس في بعديها المادي والمعنوي، فكما أنه لا يستطيع أحد أن يعتدي على مال الآخر، لأنه سيكون تحت طائلة القانون، كذلك

فإنه لا يستطيع أن يعتدي على سمعة الآخر، لأنه سوف يكون تحت طائلة القانون أيضًا، لذلك عندما ترفع دعوى على شخص ما، ويثبت بعدها أن الحق معه، فإنه يقوم برفع دعوى يطالب فيها بالتعويض، وإعادة الاعتبار عن الأذى المعنوي الذي تعرض له.

الغيبية:

تؤكد تعاليم الإسلام على هذا الجانب بصورة كبيرة، فاحترام أموال الناس وممتلكاتهم وأعراضهم وسمعتهم على حدّ سواء، تقول الآية الكريمة ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٢]. نهي صريح عن الاعتداء على شخصية الآخر بالتحدث عنه بما يسيء إليه، ويشوه سمعته، وهو ما يسمى بالغيبية.

من ضروريات الدين كما يتفق على ذلك جميع المسلمين حرمة الغيبة، وأنها من كبائر الذنوب التي ورد التشديد على تركها، وتوعد من يقوم بها ويفعلها بالنار والعذاب الشديد، فالآية الكريمة تؤكد ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي لا يمارس بعضكم هذا العدوان على الآخر، فالغيبية حرام في المجتمع المسلم، بل يمكن القول في المجتمع الإنساني بشكل عام.

ثم تأتي الآية الكريمة بمثال يوضح بشاعة الغيبة، وهي تشبيه من يغتاب غيره، بأكل لحم أخيه ميتًا، أرأيت الإنسان الذي يجلس أمام جنازة أخيه ثم يتناول منه لحمًا ويأكله! هل تحس وتشعر بشاعة هذا المنظر؟ هكذا هو حال من يذكر غيره بسوء في ظهر الغيب، والصورة واضحة، لأن أكل لحم الميت هو اعتداء على من لا يقدر الدفاع عن نفسه، وذكر الآخرين بسوء في غير محضرهم، حيث لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، يشبه ذلك تمامًا. فالغيبية - باعتبار أنها مأخوذة من الغياب - هي التحدث عن عيوب الشخص في غيابه، وهنا لن يستطيع الدفاع عن نفسه. أي كأنها

حالة انتهاز غياب الغير بالتحدث عنه بما يكره، دون أن يدافع عن نفسه، كانتهاز جسد الميت وأكله حيث لا يستطيع المقاومة.

الآثار السيئة للغيبة :

يعرف العلماء والفقهاء الغيبة بتعريفات عديدة، لعلَّ أرححها: ذكر عيوب مستورة لإنسان غائب. أحياناً يتجاهر الإنسان ببعض الصفات السيئة فذكره بها لا يعد غيبة، لأنه لو يراها عيباً لما تجاهر بها.

وأحياناً يكون للإنسان عيب وبالرغم من ممارسته له، إلا أنه لا يحب أن يظهره، ولا يحب أن يذكره أحد به، فإذا ما أعبته بما يكره في ظهر الغيب فقد اغتبهته، وهذا لا يجوز لما يترتب على ذلك من أمور:

١. إن هذا الأمر يعد عدواناً على سمعة وشخصية من اغتبهته.
٢. تعود الإنسان على هذا السلوك، فإذا ذكرت شخصاً ما بسوء، ستذكر آخر، وهكذا سيكون الأمر مستساغاً عندك، وكما في تشبيه الآية الكريمة، لو أكلت لحم ميت مرة، سيكون أكله مستساغاً في غيرها من المرات، يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لَا تُعَوِّذُ نَفْسَكَ الْغَيْبَةَ فَإِنَّ مُعْتَادَهَا عَظِيمُ الْجُرْمِ»^(١).
٣. تلويث أجواء المجتمع بما هو سلبي، والمساعدة على انتشاره، فعندما تتحدث عن عيب فلان من الناس، فإن حديثك عن عيبه يطبع العيب في أسماع الناس، ويتجرؤون على ممارسة الغيبة، حتى تسمع عمن يفتابك، كما ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَا تَغْتَبْ فَتُغْتَبَ»^(٢).
٤. التسبب في رد فعل الآخر، فمن يُغْتَب قد يصله الكلام بشكل أو بآخر،

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ج ٢، ص ٣٢٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٤٩، حديث ١٦.

فيسعى للانتقام، أو الدفاع عن نفسه، مما يجعل المجتمع ساحة للصراع والعداوات وانتشار البغضاء.

٥. معصية الله، وحرق الحسنات بالسيئات، والتنازل عن أعمالك الحسنة غيرك، في يوم أنت بأشد الحاجة إلى تلك الأعمال، لتثقل بها ميزان أعمالك، فقد ورد حديث عن رسول الله ﷺ يقول: «يُؤْتَى بِأَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، يُدْفَعُ إِلَيْهِ كِتَابُهُ فَلَا يَرَى حَسَنَاتِهِ! فَيَقُولُ: إِلَهِي لَيْسَ هَذَا كِتَابِي فَإِنِّي لَا أَرَى فِيهَا طَاعَتِي؟ فَيَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ لَا يُضِلُّ وَلَا يَنْسَى، ذَهَبَ عَمَلُكَ بِاِغْتِيَابِ النَّاسِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِآخَرَ وَيُدْفَعُ إِلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَرَى فِيهَا طَاعَاتٍ كَثِيرَةً، فَيَقُولُ: إِلَهِي مَا هَذَا كِتَابِي فَإِنِّي مَا عَمَلْتُ هَذِهِ الطَّاعَاتِ، فَيَقُولُ: إِنَّ فُلَانًا اغْتَابَكَ فَدَفَعْتُ حَسَنَاتَهُ إِلَيْكَ»^(١)، وهذا ما يجب أن يهون الأمر عند المستغاب، لأن حقه محفوظ عند الله. لذلك إذا قيل لشخص إن فلاناً من الناس قال عنك كذا وكذا، فإنه إن كان شخصاً عادياً يغضب، ولربما عامل بالمثل، ولكنه إذا كان مؤمناً واعياً لا يهتم بالأمر، ولربما صفح عن أساء إليه.

حديثهم نور

يتعجب الإنسان من تشديد النصوص الدينية على مسألة الغيبة، وهنا يدرك اهتمام الشرع بحفظ سمعة الآخرين ومكانتهم المعنوية في المجتمع، لذلك نجد روايات كثيرة عن النبي ﷺ وأهل البيت ﷺ تنهى عن الغيبة وبكل شدة:

منها ما ورد عن رسول الله ﷺ في خطبة الوداع، ونحن نعلم ما لهذه الخطبة من أهمية حيث ركز فيها رسول الله ﷺ على القضايا الأساس التي تهم الأمة، قال: «أَلَا إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا،

(١) آقا حسين البروجردي: جامع أحاديث الشيعة، ج ١٦، ص ٣٢٧، حديث ٣٣.

في بَلَدِكُمْ هَذَا»^(١) والأعراض تعني المكانة المعنوية للأشخاص.

ويروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «أَبْعَضُ الْخَلَائِقِ إِلَى اللَّهِ الْمُعْتَابُ»^(٢).

ويروي الصحابي الجليل أبو ذر الغفار عن النبي صلى الله عليه وسلم في وصية له أنه قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ يَاكَ وَالْغَيْبَةَ، فَإِنَّ الْغَيْبَةَ أَشَدُّ مِنَ الزَّنَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِمَ ذَلِكَ فِدَاكَ أَبِي وَ أُمِّي؟ قَالَ: لِأَنَّ الرَّجُلَ يَزْنِي فَيَتُوبُ، فَيَقْبَلُ اللَّهُ تَوْبَتَهُ، وَالْغَيْبَةُ لَا تُغْفَرُ حَتَّى يَغْفِرَهَا صَاحِبُهَا»^(٣) فالغيبه جريمة من بُعدين فهي معصية لله تعالى، وعدوان على شخص ما.

وهناك روايات أخرى على هذا الصعيد منها: ما جاء في الحديث القدسي أن الله تعالى خاطب نبيه موسى عليه السلام وقال: «مَنْ مَاتَ تَائِبًا مِنَ الْغَيْبَةِ فَهُوَ آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَمَنْ مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهِ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ»^(٤).

وفي حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تَرَكَ الْغَيْبَةَ أَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عَشْرَةِ آلَافِ رَكْعَةٍ تَطُوعًا»^(٥).

مجالس الغيبة :

ما هو واجب المؤمن عندما يحضر مجلسًا تجري فيه غيبة للآخرين؟

هناك مجالس سَمَّتْهَا غَيْبَةُ الْآخِرِينَ، كَأَنَّ شَغْلَهُمُ الشَّاعِلُ تَتَّبِعُ عَثْرَاتِ النَّاسِ، وَمَعَ الْأَسْفِ أَنْكَ تَجِدُ مِثْلَ هَذَا الْأَمْرِ فِي بَعْضِ الْأَوْسَاطِ الدِّينِيَّةِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ

(١) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ١٦٥، حديث ١١٨.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١، ص ١٩٥.

(٣) الشيخ الطوسي: الأمالي، ص ٥٣٧.

(٤) ميرزا حسين النوري، مستدرک الوسائل ج ٩ ص ١٢٦ حديث ١٠٤٣٨.

(٥) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٦١، حديث ٦٦.

اختلافاتهم في الرأي، أو تضارب مصالحهم، فيقوم البعض بذكر معائب الآخرين، وكأنما غاب عن بالهم أن هذا الأمر من أعظم المحرمات.

بعض المتدينين يرى في نفسه زهواً لأنه لا يشرب الخمر، ولا يزني، ولا يمارس أيًا من الكبائر، وعندما يرى أو يسمع عن غيره أنه ابتلى بمثل هذه المعاصي، يحمدهم الله أن نجاه منها، ولكنه يذكر مساوئ الآخرين ويشبع غيبة لهم، وما كان هذا الأمر من الكبائر، وأنه لا يقل عن الذنوب الأخرى، بل كما يقول رسول الله ﷺ فيما روي عنه: «الْغَيْبَةُ أَشَدُّ مِنَ الزَّنا».

إذا حضرت مجلساً كهذا فما هو واجبك؟

قد تكون منزهاً عن ممارسة الغيبة، ولكنك الآن تعرضت لاستماع الغيبة من الغير، فما يكون موقفك؟

الفقهاء يؤكدون أن استماع الغيبة إثم كقولها، إذا استمعت إلى من يستغيب شخصاً ما، وسكت على ذلك، ولم تدافع عن أخيك المؤمن، كنت شريكاً في هذه الغيبة.

ولذا يتوجب عليك أن ترد الغيبة، وألا تقبل بها، البعض يتعذر بالحياء، وهو عذر غير مقبول، إذا دعيت على شرب كأس من الخمر، فهل يكون الحياء مبرراً لك لشربه؟ وإذا ما رأيت من يأكل لحم ميت ودعاك لمشاركته، فهل يكون الحياء مبرراً لك لتشاركه، أو تسكت عنه؟

البعض إذا نهيته عن ذكر الآخرين بسوء، ودفعت الغيبة التي يلهج بها، يقول لك: إن ما أقوله صحيح! وهذا ليس مبرراً للغيبة، فالغيبة ذكر الشخص بما هو فيه، في ظهر الغيب.

جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ نَصَرَ أَخَاهُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ نَصَرَهُ

اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(١)، وعنه ﷺ قال: «إِذَا وُقِعَ فِي رَجُلٍ وَأَنْتَ فِي مِلاءٍ، فَكُنْ لِلرَّجُلِ نَاصِرًا، وَلِلْقَوْمِ زَاجِرًا أَوْ قُمْ عَنْهُمْ»^(٢). لا ترض لنفسك أن تجلس في مجلس الغيبة، لأنه مجلس منكر.

حكى لي بعض الأصدقاء أنه كان في مجلس أحد العلماء الأجلاء، فتحدث أحد الحاضرين عن عالم من العلماء بسوء، فغضب ذلك العالم، ونهره عن مثل هذا الحديث، وقال له: إذا كنت تتحمل عقاب مثل هذا الأمر فأنت حر، لكننا لا نتحمل ذلك، فلا تعد إلى مثل هذا الأمر في مجلسنا. وهذا هو الموقف الصحيح.

(١) محمد ناصر الدين الألباني: صحيح الجامع الصغير وزيادته، حديث ٦٥٧٤.

(٢) كنز العمال، ج ٣، ص ٥٨٦.



لا يسخر قوم من قوم

التعامل مع الآخرين يتأثر بالنظرة الأولى إليهم، فإذا أقبل عليك شخص ونظرت إليه نظرة احترام وتقدير، أو كانت لك سابق علاقة طيبة معه، فإن شعورك تجاهه سيدفعك إلى حسن التعامل معه. على العكس فيما لو كنت قد أخذت عنه انطباعاً سيئاً، فإن تعاملك معه سيكون على أساس شعورك النفسي تجاهه.

العلاج يبدأ من الأساس:

الإسلام القويم، وتعاليمه السمحة، تريد أن تربي الإنسان على حسن المعاشرة والخلق مع الآخرين، فذاك أدعى لترسيخ حالة الألفة والوئام في المجتمعات البشرية، لذلك فالإسلام يسعى لعلاج هذه الحالة النفسية من الأساس، يسعى لتوجيه النظرة الأولى، والأحاسيس والمشاعر التي ستبنى عليها العلاقة بالآخرين من الأساس والقاعدة، فإذا ما قوي الأساس رسخ البنيان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ * وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴿ [سورة الحجرات: الآية ١١].

الآية الكريمة تتحدث عن مفردة من المفردات المنبثقة من الأحاسيس النفسية في العلاقة مع الآخرين وهي مفردة السخرية.

السخرية: تعني الهُزء بالآخرين، والحالة النفسية للسخرية هي أن ينظر الإنسان إلى الآخرين نظرة دونية، نظرة احتقار وازدراء، وهذه النظرة تنعكس على ألفاظه معهم، وإشاراته إليهم.

والقرآن الكريم ينهى نهياً قطعياً عن هذه الحالة السيئة لما يترتب عليها من آثار عكسية.

الإنسان السوي ينبغي أن ينظر للآخرين نظرة احترام وتقدير، كما يحب هو أن ينظروا إليه.

النظرة الدونية :

ولكن لماذا ينظر البعض للآخرين نظرة دونية؟

الآية الكريم تجيب عن هذا التساؤل إجابة موضوعية، فهناك أحد سببين:

السبب الأول: أن يرى الشخص في نفسه الأفضلية على غيره.

هنا على الإنسان أن يتفكر في نفسه، وأن يجيب عن هذا السؤال: هل تستطيع أن تقطع بأنك أفضل من الذي تزدريه؟

قد يكون لهذا الشخص نقاط قوة لم تظهر لك، ولعله يصل في مستقبله إلى رتبة عالية - إن لم يكن في حاضره - أنت لا تصل إليها.

ثم هل يقبل الإنسان المؤمن أن يكون في موقع تحدُّ مع الله تعالى؟ هناك مراتب و منازل إلهية، ولربما نظر الإنسان إلى شخص نظرة ازدراء واحتقار، وكان هذا الشخص عند الله عظيم القدر والمنزلة، فكيف سيرر موقفه هذا أمام الله، وهو قد أهان واحتقر ولياً من أوليائه؟

السبب الثاني: أن تتضخم عنده نقاط ضعف الآخرين.

وهل يستطيع شخص أن يقطع بأن ليس له نقاط ضعف؟ قد تنظر إلى شخص نظرة دونية بسبب نقاط ضعف تراها فيه، ولعلّ فيك من نقاط الضعف ما هو أكثر وأفظع منه! وقد تكون نقاط ضعف غيرك لها ما يبررها، وكما قال دِعبِل الخُزاعي (ت ٢٤٦هـ):

تَأَنَّ وَلَا تَعْجَلْ بِلَوْمِكَ صَاحِبًا لَعَلَّ لَهُ عُذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ

النساء والسخرية :

يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ وهنا يُطرح سؤال: لماذا أفردت الآية شريحة النساء وخصتهن بالذكر؟!

هناك أحد احتمالين: الأول، أن تكون كلمة قوم عند العرب تطلق على جماعة الرجال، وفي أشعار العرب ما يدل على ذلك، فتكون الآية بذلك قد ذكرت الرجال ثم النساء. ف﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ أي لا يسخر رجال من رجال، كما ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾.

الاحتمال الثاني، أن لفظة قوم تشمل الرجال والنساء، ولكن ورد تخصيص النساء بعدها لوجود هذه الظاهرة أكثر في أوساطهن، سيما في تلك العصور، ولعلها لا تزال في بعض أوساطهن إلى عصرنا هذا.

ولكن لماذا تشيع هذه الظاهرة أكثر في الأوساط النسائية؟

بعض البحوث الاجتماعية الميدانية، تشير إلى أن غالب الأوساط النسائية يشغلن ببعضهن البعض، فتبرز حالة السخرية عندهن، ولعلّ من أسباب ذلك هو اهتمامات المرأة الاجتماعية والسياسية والفكرية المحدودة في بعض المجتمعات،

وهذا ما يؤدي إلى اهتمامهن بالجزئيات، كما هو الحال عند الرجال الذين لا تكون عندهم اهتمامات كبيرة.

السجناء مثلاً وبسبب انعزالهم عن ميادين العمل والحياة العامة، ينصرفون إلى اهتمامات هامشية كالتنافس على مكان النوم، أو الطعام، أو النقاش حول كلمة صدرت من هذا وذاك.

المجتمع النسائي سيما في بعض مجتمعاتنا العربية، غالباً لا تكون عندهن اهتمامات كبيرة، فينصرفن إلى خلافات تافهة مع نظرائهن.

مشروع الزواج الجماعي في منطقتنا يكون للرجال فقط، وقد اقترحت على بعض اللجان أن يخصصوا حفلاً جماعياً موحداً للعرائس من النساء، فذكروا بأن ذلك يصعب مع المجتمع النسائي، لانشغالهن بالمقارنة بين هذه وتلك من حيث الفستان والشكل، وغيرها من الأمور، وقد يوقعنا هذا الأمر في إشكالات وخرج.

ربما يكون الأمر مضحماً، وهو ليس لنقص ذاتي في المرأة، وإنما بسبب الظرف التي تعيش فيه، حيث لا تكون آفاق الاهتمامات العالية مفتوحة للمرأة.

وبسبب تضيق المجالات المهمة التي ترقى بالمرأة، تكون حالة السخرية عندهن أكثر من الرجال - حسب هذا الراي -، ولذلك خصصن بالذكر في الآية الكريمة.

أسباب النزول:

هناك روايات عدة يذكرها المفسرون في أسباب نزول هذه الآية الكريمة، نذكر منها:

الرواية الأولى: تقول بأنها نزلت في قوم كانوا يستهزئون بفقراء الصحابة، مثل: عمار، وخباب، وبلال، وسلمان، وصهيب، فهؤلاء كانوا موالى من غير القبائل

القرشية، وبعض أبناء القبائل القرشية كانوا يرون أنفسهم أكفأ وأفضل منهم، لذلك يسخرون منهم فنزلت هذه الآية تنهاهم عن ذلك^(١).

الرواية الثانية: يُذكر بأنها نزلت في عكرمة ابن أبي جهل. وأبو جهل معروف بموقفه العدائي للإسلام وللنبي ﷺ، حتى أطلقوا عليه فرعون هذه الأمة. أما عكرمة فهو مسلم مجاهد ضد أعداء الإسلام، لكن بعض المسلمين كانوا يعيرونه بأبيه، فإذا ما أقبل عليهم قالوا: جاء ابن فرعون هذه الأمة^(٢).

وهذا بالطبع فيه جرح لمشاعره، وكأنه يتحمل وزر أبيه، وهذا لا يجوز، لذلك نزلت هذه الآية.

الرواية الثالثة: تقول بأنها نزلت في بعض أزواج رسول الله ﷺ، كانت أم المؤمنين صفية بنت حبي بن أخطب، وهي من أصل يهودي، ثم أسلمت، وصارت زوجاً لرسول الله ﷺ، فكان بعض ضراتها من أمهات المؤمنين يعيرونها بأنها يهودية الأصل، فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: هلا قلتي لهن إن أبي هارون، وعمي موسى، وزوجي محمد^(٣). وهناك من يذكر بأن أم المؤمنين عائشة كانت تعيرها بقصر القامة فنزلت هذه الآية^(٤).

من هدي الأئمة

يُروى عن زين العابدين علي بن الحسين ﷺ رواية جميلة في سياق هذا الهدي القرآني، لعلاج هذه الحالة المرضية، يقول ﷺ في وصيته للزهرى «يا زُهْرِيَّ! أما عَلَيْكَ أَنْ تَجْعَلَ الْمُسْلِمِينَ مِنْكَ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَتَجْعَلَ كَبِيرَهُمْ بِمَنْزِلَةِ وَالِدِكَ» ولا أحد يقبل أن يهين والده، «وَتَجْعَلَ صَغِيرَهُمْ بِمَنْزِلَةِ وَلَدِكَ» والإنسان السوي

(١) محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، ج ٤، ص ٢٦١.

(٢) السيد محمد شكري الألوسي، تفسير روح المعاني، ج ٢٦، ص ١٥٢.

(٣) علي بن أحمد الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص ٣٩٣.

(٤) أبو عبدالله محمد القرطبي، تفسير القرطبي، ج ١٦، ص ٣٢٥.

لا تسمح له نفسه بتحقير ولده، «وَتَجْعَلُ تَرِبَكَ مِنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ أُخِيكَ» أي من هو في سنك.

«فَأَيُّ هُوَ لَاءِ تُحِبُّ أَنْ تَظْلِمَ؟ وَأَيُّ هُوَ لَاءِ تُحِبُّ أَنْ تَدْعُوَ عَلَيْهِ؟ وَأَيُّ هُوَ لَاءِ تُحِبُّ أَنْ تَهْتِكَ سِتْرَهُ؟، وَإِنْ عَرَضَ لَكَ إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ بَانَ لَكَ فَضْلاً عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ فَانظُرْ إِنْ كَانَ أَكْبَرَ مِنْكَ فَقُلْ: قَدْ سَبَقَنِي بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي»، من عنده خبرة عملية ثلاثون سنة في مجال من المجالات لا يستوي هو ومن عنده خبرة عشرة سنين مثلاً، وكذلك المؤمنون كلما تقدم بهم العمر، يفترض أنه زاد صلاحهم وعملهم الإيماني، «وَإِنْ كَانَ أَصْغَرَ مِنْكَ فَقُلْ: قَدْ سَبَقْتُهُ بِالْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ فَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، وَإِنْ كَانَ تَرِبَكَ فَقُلْ: أَنَا عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَنْبِي وَفِي شَكِّ مِنْ أَمْرِهِ فَمَالِي أَدْعُ يَقِينِي لِشَكِّي؟، وَإِنْ رَأَيْتَ الْمُسْلِمِينَ يُعْظَمُونَكَ وَيُوقِرُونَكَ وَيُجَلِّونَكَ فَقُلْ: هَذَا فَضْلٌ أَخَذُوا بِهِ» تعظيم الناس لك تفضل منهم عليك، فلا ينبغي أن يصيبك الغرور والتعالي، وكما في دعاء كميل: «وَكَمْ مِنْ ثَنَاءٍ جَمِيلٍ لَسْتُ أَهْلًا لَهُ نَشَرْتَهُ» ثم يكمل ﷺ: «وَإِنْ رَأَيْتَ مِنْهُمْ جَفَاءً وَانْقِبَاضًا عَنْكَ فَقُلْ: هَذَا ذَنْبٌ أَحَدْتُهُ؛ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ سَهَّلَ عَلَيْكَ عَيْشُكَ، وَكَثُرَ أَصْدِقَاؤُكَ، وَقَلَّ أَعْدَاؤُكَ»^(١)، هكذا يعلمنا الإمام زين العابدين كيف نحسن الظن بالآخرين، ونحمل أنفسنا المسؤولية، لا أن نتهم غيرنا ونبرأ أنفسنا.

السخرية بين الجماعات:

السخرية بين شخص وآخر أمر سيء، لكن الأسوأ منه أن تكون بين الجماعات، جماعة تسخر من جماعة، والحال هنا تكون أشنع وأفظع، لأن آثارها أشمل وأعم، لذا يركز القرآن على النهي عن هذه الحالة ﴿لَا يَسْحَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾.

هذه الظاهرة السلبية مع الأسف تنفشي في المجتمعات المتخلفة، حيث تعتقد

(١) أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، الاحتجاج، ج ٢، ص ١٥٨-١٥٩.

بعض المجاميع أنها أفضل من المجموعات الأخرى، إما لنسب أو جاه أو مال، وهذا أمر يحاربه الإسلام، ولو راجعنا في كتب الفقه باب النكاح مثلاً، نرى أن الإسلام يوجه الناس أن ينظروا إلى الشخص المتقدم للزواج بذاته، وليس لأنه من القبيلة الفلانية، وإن كان النسب له دور لانعكاسه على سلوك الإنسان، ولكن إذا تجاوز الإنسان هذه الانعكاسات فلا يبقى هناك مبرر. وهذه نقطة تغيب عن ذهن الكثيرين. الحسب والنسب يكون معياراً للتصور الأولي، فإذا ما ذكر لك شخص لا تعرفه، وقيل أنه من العائلة الفلانية المشتهرة بالتقوى والصلاح، فسيتبادر إلى ذهنك صلاحه، بعكس ما لو كنت تعرفه بالصلاح أو الفساد فالاحتمال هنا يتوقف ويتحول إلى يقين.

بعض الأحيان تكون السخرية على مستوى المناطق، فتجد من يسخر من أهل هذه المنطقة أو تلك، وهذه حالة سيئة موجودة في بعض المجتمعات.

أحياناً تكون السخرية على أساس المستوى الاقتصادي، فالأغنياء ينظرون إلى الفقراء نظرة ازدراء واحتقار. وفي بعض الأحيان تكون الانتماءات الاجتماعية وحتى الدينية سبباً للازدراء، وهذا من أسوأ أشكال السخرية. فتسمع كثيراً عبارات تدل على السخرية عندما يذكر شخص أنه ينتمي إلى المذهب الفلاني، أو الحزب الكذائي، أو تابع للمرجعية الفلانية، كأن القائل يرى نفسه ومن معه في الدرجة الأعلى وغيرهم في الدرك الأسفل.

هذه أمور سيئة ولا ينبغي أن نقبل بها.

وقد أثبتت التجارب بأن الجماعات التي تنظر إلى نفسها نظرة نرجسية، ويرون الآخرين أقل منهم، غالباً ما يكونون أقل فاعلية وعملاً ونشاطاً، حيث يعيشون على حريير الأمجاد السابقة. وهذه الظاهرة، بالإضافة إلى مقتها من قبل الله عز وجل، تجعل أصحابها أمام موقف محرج في ساعة الجد، سيرون أن الآخرين هم الأكفأ،

أما هم فليس لهم إلا أمجاد الماضي، وكما يقول الشاعر:
أَلْهَى بَنِي تَغْلِبٍ عَنْ كُلِّ مَكْرَمَةٍ قَصِيدَةُ قَالِهَا عَمْرُو بْنُ كُثُومٍ
نأمل أن تتجاوز مجتمعاتنا هذه الظواهر السيئة، وأن نتحلى بأخلاق القرآن،
وأخلاق رسول الله وآل بيته الطاهرين.



التجسس وهتك أسرار الآخرين

من أجل بناء علاقات اجتماعية يكون أساسها الألفة والانسجام بين الناس، لا بد من بناء قاعدة أخلاقية صلبة، تحفظ الاحترام المتبادل بين أبناء المجتمع، وتحمي حقوق الأفراد والجماعات من أي إساءة وعدوان.

تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٢]. وهو نهي صريح واضح عن التجسس.

والتجسس هو البحث بوسيلة خفية، وهو مشتق من الجسس، ومن يقوم بهذا العمل يطلق عليه جاسوس. أي إن مهمة الجاسوس أن يبحث عن الأخبار الخاصة للآخرين.

إن كل إنسان له كيانه الخاص، له آراؤه الخاصة، وأموره التي تختص به، ولا يحب أن يطلع عليها أحد، فلا يحق لأحد أن يهتك عليه حرمة، سعيًا وراء معرفة أسرار، وما يريد إخفاءه، هذا ما تنهى عنه الآية الكريمة.

كتمان الأسرار لماذا؟

إنما يتقصد الإنسان إخفاء أشياء وجوانب من حياته لأحد الأسباب التالية:

١. إما لأنها تمثل نقاط ضعف، ولا أحد يرغب في اطلاع الآخرين على نقاط ضعفه.

٢. وقد تكون نقاط قوة، لكن يخشى أن يطلع عليها أحد فيفسدها أو يضرها. قد يفكر في مشروع اقتصادي، وإذا ما أذاعه أو أذيع من قبل غيره، أخذت فكرته وسبقه للعمل بها غيره، وكذلك الحال في المجال السياسي، والاجتماعي، أو أي مجال آخر، وهناك نصوص دينية تشجع الإنسان على كتمان أموره الخاصة في بعض الحالات.

٣. وقد يرى الإنسان في إخفاء أموره الخاصة راحة له، كعلاقاته مع زوجته، أو مع أولاده، تمامًا كمظهره أمام الناس، فهو يظهر أمامهم بكامل زينته، لكنه في بيته يتخفف من كثير من ملابسه. وهذا حق مشروع لكل إنسان.

التنقيب عن الأسرار.. لماذا؟

قد يسعى الإنسان بوسائل البحث الخفية، لمعرفة أسرار وخواص شخص ما، من باب التطفل والفضول، وهي عادة سيئة.

وكذلك التلصص على الآراء والأفكار، بأن يسعى لمعرفة فلان من الناس في ماذا يفكر؟ وما رأيه في القضية الفلانية؟ من أجل تصنيفه من أي توجه ليتخذ منه موقفًا. وقد ورد رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ»^(١).

والتفتيش في نيات الناس لا يجوز، وهو يجر إلى عداوات، كما يقول الإمام الصادق ﷺ: «لَا تَفْتَشِ النَّاسَ عَنْ أَدْيَانِهِمْ فَتَبْقَى بِلاَ صَدِيقٍ»^(٢).

وقد يكون السبب وراء السعي لمعرفة خاصيات الآخرين هو رصد نقاط ضعفهم

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، حديث ٤١١٦.

(٢) تحف العقول، ص ٣٦٩.

وعيوبهم، من أجل الإضرار بهم، وهو من أشد أنواع التجسس حرمة.

وسائل التجسس

مع تطور العلم تتطور وسائل التجسس، وقد أصبحت في متناول الجميع، وأصبحت مصدر أزمات.

ذات مرة كنت أناقش قضية اجتماعية بين زوجين للإصلاح، الزوجة كانت تقول بأن عندها شريط تسجيل يدين زوجها، والزوج كذلك يدعي تسجيلها وإدانتها، كل واحد منهما عمل مخبراً على الآخر! وهذا من أسوء العلاقات الزوجية، علاقة تبدأ بسوء الظن، وتنزل إلى التجسس، وهذا حرام شرعاً.

لا يحق لأحد كائناً من كان أن يتجسس على غيره، لا الأب على أولاده البالغين الراشدين، ولا الزوج على زوجته أو العكس، قد يستثنى جانب التربية والإصلاح، لكن هناك تحذيراً فقد يؤدي الشك واستخدام الوسائل الملتوية إلى نتائج عكسية، وردود فعل سيئة.

الجوال الذي هو في أيدي حتى صغار السن، فيه آلة تسجيل سمعية ومرئية، لكن استخدام هذه الوسائل من أجل إدانة الآخرين ونشر نقاط ضعفهم وعيوبهم لا يجوز. كل إنسان له الحق في إخفاء ما يريد إخفاءه، وواجبك الشرعي أن تحترم هذا القرار.

من هدي الرسالة

نصوص كثيرة وردت عن رسول الله ﷺ وأهل بيته الطاهرين تنهى عن التجسس، وتؤكد حرمة الناس، وفضاعة التعدي عليها، ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «لَا تَتَّبِعُوا عَثْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّهُ مَنْ تَبَعَ عَثْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ، تَبَعَ اللَّهُ عَثْرَتَهُ؛ وَمَنْ تَبَعَ اللَّهُ

عَثْرَتُهُ يَفْضَحُهُ»^(١).

تتبعي لنقاط ضعف الآخرين، وتتبع الآخرين لنقاط ضعفي، يؤدي إلى تفشي هذا السلوك السيئ، والله تعالى قد يسלט على الجاسوس من يفضح عوراتهم، ونقاط ضعفهم، كما فعل بغيره، وفي ذلك رادع له ولغيره.

في بعض الأحيان قد يكون عندك صديق، وبحكم هذه العلاقة يطلعك على بعض أسرارهم وخصائصهم، لكن البعض يسيء استخدام هذه الثقة، ويفتح له سجلات لحفظ هذه الأسرار، حتى إذا ما نشبت بينه وبين صديقه عداوة، فتح سجله السري، وأفشى ما فيه. وهذا من أقبح الممارسات، ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إِلَى الْكُفْرِ أَنْ يُوَخِّي الرَّجُلَ عَلَى الدِّينِ، فَيُحْصِي عَلَيْهِ عَثْرَاتِهِ وَزَلَّاتِهِ لِيُعَنِّفَهُ بِهَا يَوْمًا مَا»^(٢).

وعن عبدالله بن سنان قال: قلت للإمام جعفر الصادق عليه السلام: «عَوْرَةُ الْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَرَامٌ؟
قَالَ: «نَعَمْ».

قُلْتُ: تَعْنِي سُفْلِيهِ؟ قَالَ: «لَيْسَ حَيْثُ تَذْهَبُ، إِنَّمَا هِيَ إِذَا عَثَّرَهُ سِرَّهُ»^(٣).

وفي رواية عن الإمام علي عليه السلام: «تَتَّبِعِ الْعُيُوبَ مِنْ أَقْبَحِ الْعُيُوبِ وَشَرِّ السَّيِّئَاتِ»^(٤).
وعنه عليه السلام: «مَنْ بَحَثَ عَنْ أَسْرَارِ غَيْرِهِ أَظْهَرَ اللَّهُ أَسْرَارَهُ»^(٥).

ومن الأساليب السيئة في هذا المجال أن ترى شخصين يتحادثان، ولا يريدان

(١) الكافي، ج ٤، ص ٧٩، حديث ٤.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٧٧، حديث ١.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨٦، حديث ٢.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٣٢٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٣٨.

أن يسمع أحد حديثهما، فتوجه سمعك لتسمع ما يهمسون به. إنك كما تحب أن تُحترم أسرارك، فعليك باحترام أسرار غيرك، جاء عن رسول الله ﷺ: «مَنْ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ مَلَأَ اللَّهُ مَسَامِعَهُ مِنَ الْإِنِّكَ»^(١).

استثناءات في حرمة التجسس

النصوص السابقة وغيرها كثير تؤكد على حرمة الناس، واحترام أمورهم الخاصة، لكن السؤال هنا: هل التجسس بمطلقه حرام؟

هناك استثناءات لحرمة التجسس وأبرزها:

١. تجسس الدولة على موظفيها في مجال عملهم: من حق الدولة بل من واجبها أن تراقب أداء الموظفين لأعمالهم، كديوان المراقبة مثلاً وهذا أمر مشروع، وكان رسول الله ﷺ عندما يعث جيشاً يعين عليه أميراً، ويعين مراقباً يتبع أخبار هذا الأمير، وطريقة إدارته، ويوافي رسول الله ﷺ بالخبر. أمير المؤمنين علي عليه السلام كذلك كان يأمر مالك الأشر أن يراقب أداء الموظفين ويتجسس عليهم في مجال أدائهم لوظيفتهم، شريطة ألا يتعدى ذلك إلى الأمور الخاصة.

٢. التجسس على الأعداء: في أي عصر من العصور لا بد أن يكون لأي دولة جهاز رقابي، وظيفته متابعة ما يحاك للأمة من مؤامرات من قبل الأعداء، سواء العدو الداخلي أو الخارجي.

ومن الخطأ أن تتعامل الأمة مع الآخرين ببساطة وسذاجة، فذلك يعرض أمنها للخطر.

٣. التجسس على الأشرار ومن يسيئون لأمن الناس: إذا علمت الدولة أن هناك لصوصاً وعصابات تُفسد وتعتدي على أمن الناس وأعراضهم، هنا يجب

(١) الشيخ الصدوق: الخصال، ص ١٠٩، حديث ٧٧.

على الدولة أن تسعى لكشف هذه العصابات عبر أجهزة متخصصة، بحيث لا تنتهك فيه الخصوصيات الشخصية إلا بمقدار الحاجة.

والمقصود بالأعداء هنا هم من يريدون السوء بالناس والوطن، دون التدخل في الشؤون الشخصية والفكرية، وهناك نصوص كثيرة مضمونها أن على الوالي أن يحفظ أسرار الناس ولا يتطلب معايهم، في عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشر: «وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبَهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا، وَالْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ»^(١). وهذا يعني أن ليس من حق الدولة التجسس على المعاييب الشخصية. إنسان يمارس ذنباً بينه وبين نفسه، لا يتعدى به على حق الغير، فليس من حق الدولة مراقبته، ولا أي جهة من الجهات.

وقد كتب الفقهاء بحوثاً حول هذه الأمور وخاصة في هذه السنوات بعد أن وصل الإسلاميون إلى مناصب في السلطة، أصبحوا معينين بدراسة موضوع الاستخبارات من قبل الدولة، ما يجوز منه وما لا يجوز.

فقد كتب في هذا المجال باستفاضة الفقيه الشيخ حسين علي المنتظري في كتابه (دراسات في ولاية الفقيه)، وكذلك الفقيه الشيخ جعفر السبحاني في كتابه (معالم الحكومة الإسلامية)، وقد أشار إلى هذا الموضوع المرجع الراحل السيد محمد الشيرازي في كتبه عن الدولة الإسلامية وسياستها.

وقد قرر كل أولئك أن التجسس على أسرار الناس في أصله حرام، ولكن ما يستلزمه حفظ النظام، وحفظ مصلحة الدين والمجتمع والأمة، فهو جائز ضمن الضوابط الشرعية.

(١) نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣، كَتَبَهُ لِأَشْتَرِ النَّحْعِيِّ.



الصراعات الداخلية في المجتمع

مجتمع المؤمنين مجتمع بشري، والإيمان بالله تعالى وبالدين لا يُبدل طبيعة الإنسان، وإنما يُشَدِّبها ويُرَشِّدها، فإن الإنسان هو الإنسان بغرائزه وميوله. قد يتصور البعض أن المؤمنين لا يقع بينهم صراعٌ ولا نزاع، وهذه نظرةٌ مثاليةٌ تصلح طموحًا وتطلعًا، لكنها لا تتحقق على أرض الواقع، فما داموا بشرًا فإنه من الممكن أن تحدث بينهم صراعات ونزاعات.

دوافع الصراعات

دوافع الصراعات والنزاعات في المجتمع الإيماني هي نفسها في المجتمعات الأخرى، وغالبًا ما تصدر من أحد باعثين:

الأول: الاختلاف المصلحي، فحينما تتضارب المصالح يحصل الصراع، سواءً كانت المصالح مادية، أو جاهية، أو سياسية.

الثاني: الاختلاف في الآراء والتوجهات، إذ إن تعدد الآراء والانتماءات، قد يكون سببًا للصراع والنزاع في مجتمع المؤمنين، كما في سائر المجتمعات.

كتب التفاسير حينما تتحدث عن المورد الذي نزلت فيه الآيتان الكريمتان من سورة الحجرات، ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ

إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى نَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿[سورة الحجرات: الآيتان ٩-١٠].

تنقل روايات عن نزاع حصل بين مجموعتين من قبيلتي الأوس والخزرج، في عهد رسول الله ﷺ، وهما قبيلتان في المدينة المنورة، كانت بينهما حروب تاريخية، ولما جاء الإسلام حصل ببركته وئام بينهما، لكن هذا الؤام لا يعني أن كل آثار الفترة الماضية قد انتهت، وتُشير الروايات أن أسباب الصراعات التي تحصل بين القبيلتين بين فينة وأخرى أغلبها كانت تافهة، والأشخاص الذين يبدؤون النزاع من هذه القبيلة أو تلك هم غالباً من ذوي الأغراض، وقد استخدمت في هذا الصراع الذي نزلت الآيتان بسببه بعض مقدمات العنف كسعف النخيل والأحذية.

ضوابط وحدود

النزاعات والصراعات حين تحصل في مجتمع المؤمنين، يجب أن تواجهها ضوابط وحدود من أهمها:

أولاً: التأكيد على الالتزام بالأخلاق والحدود الشرعية.

ثانياً: أن يتحمل المجتمع مسؤوليته تجاه النزاع الذي يحصل في ساحته.

فموقف التفرج على الصراع خطأ، وعلى المؤمنين تحمل المسؤولية.

والله تعالى في الآيات الكريمة، يُوجّه أمراً لجميع المؤمنين بأن يتخذوا الموقف الصائب تجاه الصراع الذي يحصل في ساحتهم، ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾.

والاقتتال في الاصطلاح يعني الحرب بالسيف والأسلحة المختلفة، لكن هذا هو الحد الأعلى، وأي نزاع يُمكن أن يُطلق عليه اقتتال، والآية تُشير إلى ذلك. وعادةً

أي نزاع إذا لم يُعالج يُرشَّح للتصاعد، لذلك تؤكد الآية الكريمة ضرورة المبادرة لمعالجة الصراع: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾.

ويُشير أحد المفسرين إلى اختلاف الضمائر في الآية الكريمة، ففي بداية الآية التعبير بصيغة التثنية: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ﴾، ثم انتقل إلى الجمع: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتُلُوا﴾، وعاد إلى التثنية: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، لأن النزاع غالباً ما يبدأ بين شخصين أو مجموعتين، لكنه إذا تصاعد تتوسع دائرة المشاركين في الصراع لتشمل الجميع! وأمر الله تعالى بالإصلاح دليل على وجوب ذلك، وأنه على المؤمنين أن لا يقفوا موقف المتفرج على الصراعات التي تحصل في ساحتهم.

المسؤولية تجاه البغي والعدوان

ثم يقول تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾، وهذه مسألة مهمة، ففي النزاعات والصراعات غالباً ما يكون هناك تجاوز من فئة على أخرى، ومجتمع المؤمنين عليه مسؤوليتان:

المسؤولية الأولى: الدعوة إلى الصلح:

هناك نصوص وأحاديث كثيرة حول إصلاح ذات البين، يقول تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١]، ويقول تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٤]. وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى قَالَ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فِسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ»^(١).

وفي حديث آخر عنه ﷺ أنه قال لأبي أيوب الأنصاري: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ

(١) محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، حديث ٢٥٠٩.

يُحِبُّهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟ تُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَبَاعَضُوا، وَتَفَاسَدُوا»^(١).

فالإسلام يأمرنا بإصلاح ذات البين، وهو واجبٌ كفائي إذا قام به وحققه البعض سقط عن الكل، وإلا فالجميع آثمون.

وإصلاح ذات البين يعني السعي على مختلف المستويات والصُّعَد، على المستوى العائلي، وعلى المستوى الاجتماعي.

وموقف التفرج غير صحيح، لأن الإنسان المؤمن مطلوبٌ منه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأي معروف أفضل من الوئام والوحدة؟!، وأي منكرٍ أسوأ من الخصومة والنزاع؟!!

كما أن النزاع والصراع يضرّ بالمجتمع كله، وليس المقصود بذلك وجود التنوع والاختلاف في الرأي والموقف، وإنما تحوله إلى نزاع وصراع يهدد أمن المجتمع واستقراره.

لذلك ينبغي للمجتمع أن ينتج سعيًا وجهدًا لأداء واجب الإصلاح، وذلك يحتاج إلى إنتاج ثقافة واعية، تدفع باتجاه الإصلاح والوئام، ويحتاج إلى تظافر جهود المصلحين، أما ما يقوم به البعض من تدميرٍ في المجالس بسبب حدوث بعض النزاعات في المجتمع، أو بين الشخصيات البارزة، فهذا لا يسهم في حل المشكلة إن لم يُعقدها أكثر. فعلى كل شخص واع أن يطالب نفسه بدور تجاه ما يحصل في المجتمع من نزاع وصراع.

المسؤولية الثانية: إدانة البغي ومواجهة الاعتداء

حينما يكون هناك عدوان من فئة على أخرى، فبناء المجتمع لا يصح لهم أن يكونوا محايدين، بل يجب أن يكون هناك موقفٌ ضدَّ الجهة المعتدية، يقول تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾، أما

(١) الحافظ المنذري، صحيح الترغيب والترهيب، حديث ٢٨٢٠.

موقف الحياد فهو لا يصح، وذلك لأمرين:

الأول: موقف الحياد يُعتبر نوعاً من الخذلان للطرف المظلوم. وقد وردت نصوص عن لزوم إعانة المظلوم، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «أَحْسَنُ الْعَدْلِ نُصْرَةُ الْمَظْلُومِ»^(١)، وقال عليه السلام في وصيته الأخيرة لولديه الحسنين عليهما السلام: «كُونَا لِلظَّالِمِ خَصْمًا، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا»^(٢).

والإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق، يعتبر عدم مساعدة المظلوم ذنباً يستغفر الله تعالى ويعتذر إليه منه، يقول عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَدِرُ إِلَيْكَ مِنْ مَظْلُومٍ ظَلِمَ بِحَضْرَتِي فَلَمْ أَنْصُرْهُ»^(٣).

فلا يصح للمجتمع أن يتفرج حينما يكون هناك اعتداءً من فئةٍ على أخرى.

الثاني: حينما يُسكت عن الظلم فإنه يتفشى ويتنشر.

لذلك يجب أن يكون هناك موقف تجاه الطرف المعتدي، فالاختلاف في الرأي مشروع، لكن الاعتداء ظلم ولا يصح السكوت عنه.

الاعتداءات المعنوية

وليس هناك فرق بين أن يكون العدوان مادياً أو معنوياً، فوجوب رفض العدوان يشمل الجانبين.

كثير من الناس يسكتون أمام الاعتداءات المعنوية من هذا الطرف على ذاك، وهذا لا يصح شرعاً. فحينما يكون حديث على أي فئةٍ أو شخصيةٍ في المجتمع، فعلى من يستمع إلى ذلك الحديث أن يُشخِّص الموقف، فإذا كان الحديث في إطار

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، ص ١٩٢.

(٢) نهج البلاغة، ومن وصية له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم.

(٣) الصحيفة السجادية، دعاء ٣٨.

توضيح نقاط الاختلاف في الرأي، ووجهات النظر بين الأطراف، أو الشخصيات المختلفة في المجتمع، فهذا بحث ونقاش علمي، وصراع ثقافي مقبول، ولكن إذا كان في الحديث اعتداء وإسقاط للفئة الأخرى، أو تشكيك في دينها، أو اعتداء على أعراضها، فهنا لا يصح السكوت وإنما ينبغي أن يكون هناك رفض واعتراض.

فعلى المؤمنين أن يكون لهم موقف واضح تجاه أي اعتداء، بمختلف الوسائل والطرق: كاللسان والقلم، لأن الجهة المعتدية إذا رأت أن هناك رفضاً من المجتمع لممارساتها، فإن أقل نتيجة مرجوة هي وضع حد لمثل هذه الممارسات.

من المؤسف أن بعض الجهات تلقى تشجيعاً من بعض الدائرين في فلکها، فتظن أن هذا يُعبّر عن رأي المجتمع، وقد يكون أكثرية المجتمع غير راضين، لكنها أكثرية صامتة، فعلى الأكثرية الصامتة أن تخرج من صمتها، لتدين وترفض البغي والعدوان على الأطراف الأخرى.

وإذا لم ترفض فئة ما البغي والعدوان على الفئات الأخرى، فلتتظر دورها من العدوان والبغي عليها، كما يحدث ذلك في أمثال هذه الحالات.

فينبغي أن تؤسس حالة اجتماعية لإدانة ورفض البغي والعدوان، حتى تكون هناك حصانة للمجتمع ككل من الإصابة بهذه الآفة.

وتختتم الآيات الكريمة بالتأكيد على أخوة المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، والمؤمنون تعني جميع من آمن بالله تعالى ورسوله واليوم الآخر فهم أخوة، ونهج الإصلاح ينبغي أن يسود بينهم جميعاً.



معالجة الأزمات واطفاء الحرائق



تأخذ النزاعات الاجتماعية غالبًا طابع التمدد، وتهدد بالإضرار بالدوائر الأبعد عن محيطها الخاص. لذلك يحث الإسلام على تحمّل أقصى درجات المسؤولية حيال مختلف النزاعات الفردية والاجتماعية، ويرفض رفضًا قاطعًا الوقوف موقف المتفرج منها، ومردّد ذلك إلى أنّ أيّ مشكلة أو نزاع يأخذ مكانه في المجتمع، فإنه لن يبقى محصورًا في دائرته الخاصة، وإنما ينعكس سلبيًا على المجتمع برمّته، ويتمدد ضرره إلى حدود أبعد مما يُتصور.

إنّ المجتمع الرشيد هو الذي يحاصر مشاكله فور اندلاعها، ويشرع في معالجتها. بخلاف ما إذا جرى السكوت عن المشاكل، التي قد تبدو صغيرة تافهة في بدايتها، إلا أنّها سرعان ما تتضخم وتتوسّع، عندما لا تجد من يسعى في حلّها منذ البداية. شأن ذلك شأن الحرائق، التي متى ما اندلعت في مكان ما، فإنّ على الجميع المبادرة لإخمادها فورًا، تفاديًا لتمدّدها إلى الأماكن المجاورة، وإلا فإنّ ثمن إهمالها سيكون باهظًا.

من هنا، لا بُدّ وأن تكون في كلّ مجتمع ما يمكن أن نسمّيها فرق إطفاء الحرائق الاجتماعية.

الإصلاح بين الزوجين

لقد تناول القرآن الكريم مسألة الخلاف بين الزوجين باعتباره نموذجاً مصغراً، ينبغي أن تظهر معه المسؤولية الاجتماعية، باتجاه وضع حدٍّ للخلاف بينهما. ذلك أن الشرع يوجب على المجتمع أن يلعب دوراً في معالجة الخلافات العائلية، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٥]، وقد ذهب جمع من العلماء إلى أن الآية الكريمة تأخذ طابع الوجوب، أي إنها توجب على المجتمع التدخل لمعالجة الخلاف بين الزوجين، ورفض موقف عدم المبالاة منه، ومرد ذلك إلى الآثار السلبية التي يمكن أن يتركها هذا الخلاف، فالزوجان عضوان في المجتمع، والخلاف بينهما ينعكس سلباً على نفسيتهما وسلوكهما وإنتاجهما، كما يمكن أن يؤثر على تنشئة الأبناء، إضافة إلى إمكانية امتداد الخلاف إلى أسرتي الزوجين، ناهيك عما يمكن أن يتركه من أثر سلبي على الأمن الأخلاقي للمجتمع، نتيجة التفكك الأسري، وانعكاس ذلك على السلوك الأخلاقي العام للزوجين.

لذلك لا يقبل الشرع أن يبقى المجتمع ساكناً عن المشاكل الزوجية متفرجاً عليها. والسبيل إلى المعالجة هو ما تقترحه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾، وقد ذهب مفسرون إلى القول إن الأمر ﴿فَابْعَثُوا﴾ منوط بالحاكم الشرعي، فيما ذهب مفسرون آخرون إلى اعتبار ذلك واجباً كفايياً على الواعين من أبناء المجتمع، في حين قال آخرون بأن مسؤولية ذلك تقع على عائلي الزوجين. وتشير الآية بوضوح إلى أن أمر تحقيق الإصلاح يبقى مرهوناً بتوفر الإرادة لدى الأطراف المعنية، سواء كان المقصود في الآية هما الزوجان أم الحكمان.

إرادة المصالحة

وعلى نطاق أوسع، يمكن القول إن استحكام حالة التعنت، وغياب الإرادة في الإصلاح، عند أطراف الخلاف، هو ما جعل ساحتنا الإسلامية ساحة احتراب، ومسرحاً للمشاكل الاجتماعية والسياسية.

إن المجتمعات الحيّة التي تنعم بالاستقرار والسلم، لم يتأت لها ذلك لولا إيمانهم بأهمية السلم الاجتماعي أولاً، واحتكامهم لسيادة القانون ثانياً، إضافة لوجود مؤسسات معززة للسلم المجتمعي، وذلك بخلاف الحال في مجتمعاتنا الإسلامية، التي أصبحت ساحة احتراب واضطراب، فلا يكاد يوجد بلد إلا ويرزح تحت وطأة مختلف المشاكل. مع انتماء هذه الأمة للقرآن الكريم الذي يحمل المجتمع كله المسؤولية عن محاصرة المشاكل ومعالجتها.

إن محاصرة المشاكل ومعالجتها أمر مرهون بتوفر إرادة الصلح والإصلاح، كما يقول تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾، غير أن افتقاد الرشد، وغياب الوعي، غالباً ما يقود إلى المكابرة، وتعنت مختلف الأطراف المتنازعة تجاه بعضها بعضاً، لتتلاشى عندها أي إرادة للإصلاح.

هناك شروط ينبغي التوفر عليها في سبيل تحقيق إرادة الإصلاح، ومعالجة المشكلات الاجتماعية. ويأتي في الطليعة منها: الرجوع إلى العقل، وحساب الخسارة والربح في كل خطوة، فأیما عاقلٍ أعمل عقله، فسيجد أن النزاع والشقاق لن يعود بالخير على أي طرف.

إن أحد عوامل تسعير النزاعات، هو نزوع بعض الأطراف إلى التفكير غير العقلاني، ورهان كل طرف على حسم النزاع لمصلحته، على حساب منافسيه وخصومه، إن الساحة العالمية تشهد تداخلاً كبيراً على صعيد إدارة الصراعات، فلم تعد الصراعات المحلية في أي مكان معزولة عن الخارج، وإنما بات الصراع

في أي منطقة عرضة لتدخل إرادات أخرى تساهم في تسعييره وتعميقه والاستثمار فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾، ومن هؤلاء الشياطين؛ تجار الحروب، ومصنعو الأسلحة الفتاكة، الذين حققوا أرباحاً خيالية نتيجة الصراعات المستعرة في منطقتنا العربية والإسلامية خلال هذه السنوات.

إن ما يعرف بكارتل صناعة السلاح، أسعد ما يكونون في حالات اندلاع الحروب والنزاعات، ولا يمكن أن يسمحوا لأحدٍ بالعمل على الحد من تجارتهم الفتاكة. ولعل أبرز مثال على ذلك النزاع بين الإدارة الأمريكية وكراتل صناعة السلاح في الولايات المتحدة، الذي له نفوذ قوي في الكونغرس، فقد رفع الرئيس الأمريكي اوباما شعار الحد من اقتناء الأسلحة الفردية داخل أمريكا؛ نظراً لتفاقم حالات سوء استخدام السلاح هناك، غير أن ذلك يصطدم بصخرة الكونغرس الخاضع لكراتل صناعة السلاح.

إن أي تفكير عقلائي سيقود بطبيعة الحال إلى الاستنتاج بأن المستفيد الأول من تفاقم الخلافات في الساحة الإسلامية هم أعداء الأمة.

أما الشرط الثاني فهو التوازن النفسي عند الأطراف المتنازعة. حيث يفقد المتنازعون غالباً توازنهم النفسي، لتفسح المجال لسيطرة العقد النفسية، وحالات حب الانتقام، والرغبة في أخذ الثأر من الطرف المقابل، فلا يعود حينها التفكير عقلياً، إنما يصبح المتنازعون تحت سيطرة العواطف والانفعالات، لتغيب عندها أي إرادة للإصلاح.

ويتمثل الشرط الأخير في توفر البيئة المشجعة على الصلح وإقامة السلم. إن هناك في الأمم الواعية بيئة مجتمعية، وأرضية ثقافية، تدفع باتجاه المصالحة وتحقيق السلم، والرغبة في الاستقرار، وعلى النقيض من ذلك في مجتمعاتنا الإسلامية. لدينا بيئة حاضنة للاحتراب، تدفع باتجاه النزاع، تارة تحت عناوين دينية، وأخرى بصفتها امتداداً لصراعات التاريخ.

الخروج من مأزق الاحتراب

إنّ ديننا الإسلامي يوجب أن نكون جميعاً دعاة أمن وسلم واستقرار. وهذا لن يتأتى ما لم تكن الأطراف المختلفة مستعدة لتقديم التنازلات المتبادلة، فإذا ما توفر هذا الاستعداد، ومن ثم التوجّه نحو معالجة الجذور الباعثة على اندلاع المشاكل، فإنّ من الممكن تحقيق حالة الصلح والاستقرار في مجتمعاتنا. بخلاف ما إذا أصرّ كلّ طرف على اخضاع الطرف الآخر، فذلك ما يجعل من مهمّة تحقيق الاستقرار مهمة عسيرة.

لقد تسببت حالات الاحتراب القائمة في مجتمعاتنا في تداعيات مؤلمة كبيرة. فقد تعطلت التنمية، واستهلكت الثروات، وعبئت النفوس على بعضها بعضاً، وُخلقت الاصطفافات وحالات التخندق تحت مختلف العناوين، وفقدت الأوطان الإسلامية أمنها واستقرارها، وباتت تُسفك الدماء في شوارعها على مدار الساعة، فإلى متى تستمر هذه الحالة المدمرة؟ وأين ذهب عقلاء الأمة؟ ولم غابت المؤسسات التي يفترض بها تقديم مبادرات الصلح والسلام، أوليس هذا الجهد التصالحي منوط بمبادرات من منظمة التعاون الإسلامي، التي تبدو الأمة اليوم أحوج ما تكون لدورها ومبادراتها؟

إنّ على منظمة التعاون الإسلامي أن تتحرك من أجل إطفاء الحرائق بين الدول الإسلامية، وبين الشعوب والحكومات، وبين الطوائف وأتباع المذاهب. وعلى هذا النحو ينبغي أن يتحرك علماء الدين والمفكرون والواعون. ولا شك أنّ المهمة ستكون شاقة نتيجة وقوع المصلحين دائماً بين المطرقة والسندان، فكّل طرف يضغط عليهم بوسائله الخاصة، حتى يصطفوا معه ويكونوا إلى جانبه، لكن هذه المشقة والصعوبة لا تسقط الواجب عن عاتق الواعين الغيارى على مصالح الأمة ومستقبل شعوبها.



الحوار القرآني^(١)



الأستاذ محمد الشيب: سماحة الشيخ حسن الصفار، أهلاً وسهلاً بك في مؤسسة لقيت منكم الاهتمام والدعم والرعاية منذ بدء نشأتها... ونحن في مؤسسة علوم القرآن الكريم سعيون بتشريفكم لهذا الحفل، والمؤسسة في مرحلة جديدة من مراحل نموها وتكاملها، وهي مرحلة منح شهادة دبلوم علوم القرآن الكريم، ونتمنى أن يكون هذا اللقاء إن شاء الله نواة للقاءات موسعة حسبما تتيح الفرصة، وحسبما يتيح وقتكم الثمين لكي نستفيد من توجيهاتكم ورعايتكم.

■ في البدء سماحة الشيخ ضمن زيارتكم العديدة لكثير من الدول الإسلامية، واهتمامكم بالنشاط الإسلامي العام، والنشاط الاجتماعي، كيف ترون اهتمام العالم الإسلامي بالقرآن الكريم، وهل يرقى هذا الاهتمام إلى المستوى المطلوب؟ وما هي النسبة في هجر القرآن الكريم؟ هل هي في تراجع أم في ازدياد سلبيًا أو إيجابيًا؟

الشيخ الصفار: أود في البدء أن أعبر عن بالغ سروري وعميق سعادتني بمشاركتكم في هذا البرنامج القرآني الرائع، كما أسجل تقديري للإخوة الأعزاء

(١) ندوة قرآنية ضمن فعاليات الاحتفال بمناسبة افتتاح برنامج دبلوم علوم القرآن الكريم في مؤسسة علوم القرآن بأمر الحمام بتاريخ ٢٦ جمادى الآخرة ١٤٢٨ هـ الموافق ١٢ يوليو ٢٠٠٧ م.

في مؤسسة علوم القرآن الكريم على ما يبذلونه من جهد، وما يقدمون من خدمات كبيرة لكتاب الله المجيد، وللمجتمع من خلال خدمتهم للقرآن، إنهم يستحقون كل شكر وتقدير، أسأل الله سبحانه وتعالى لهم عظيم الأجر والثواب، وأن يحقق على أيديهم الآمال والتطلعات.

بالنسبة للسؤال المطروح حول اهتمام العالم الإسلامي بالقرآن الكريم: نرى أن هناك اهتماماً في ساحات كثيرة، وضمن مشاريع عديدة، بالقرآن الكريم، في مختلف بقاع العالم الإسلامي، ولكننا لو أردنا أن نرسم الصورة العامة لواقع العالم الإسلامي، لرأينا أنه في هذا العصر، وجَّهت إساءة كبرى للقرآن الكريم، لم يحدث أن وجَّهت مثلها في عصر من عصور الإسلام السابقة، في هذا العصر، عصر العولمة، وعصر تفتح العقول والأذهان، وعصر تعطش البشرية للينابيع الروحية الموجودة في القرآن الكريم، في هذا العصر بالذات، ابتليت الأمة بتيارات وتوجهات خلقت صورة مشوهة للقرآن والإسلام أمام الرأي العام العالمي، ولم تحصل في التاريخ الماضي جرأة على القرآن والإسلام على المستوى الثقافي والإعلامي، بهذا المستوى الذي حصل في هذا العصر، تجدون السياسيين والمثقفين في المجتمعات الغربية يتبارون في إظهار الإساءة إلى الإسلام، وقبل أيام لعلكم تابعتم خبر تكريم ذلك الكاتب الذي حاول تشويه القرآن والإسلام وسيرة رسول الله ﷺ المرتد سلمان رشدي، تكريمه من قبل أعلى المستويات في بريطانيا، حيث سلمته الوسام ملكة بريطانيا، وواضح أن هذا التكريم تكريم لدور الإساءة الذي قام به تجاه الإسلام، وقبل ذلك ما حصل في الدانمارك، بنشر الرسوم المسيئة إلى رسول الله، والكتابات التي تحصل في أمريكا، والتشويه الإعلامي عبر مختلف الوسائل، وكذلك كلما سمع العالم عن الأعمال الإرهابية التي تجري في مختلف أنحاء العالم، وأنه يكون خلفها أناس منتمون إلى الإسلام، ويتظاهرون بتقديس القرآن، هذا تشويه كبير، وأعتقد أن المعركة الكبرى اليوم، التي يجب أن يخوضها العالم الإسلامي، وأن يخوضها المسلمون في هذا العصر، يجب أن تكون

لإنقاذ القرآن وإنقاذ الإسلام من مختطفيه، الإسلام مختطف في هذا العصر من قبل تيارات التشدد والإرهاب، اختطفت الإسلام ورسمت له صورة مشوهة أمام الرأي العام العالمي، قد يقول البعض إنها أيادي استعمارية، ومؤامرات استكبارية، هذا قد يكون صحيحًا، لكننا لا نستطيع أن نتجاهل أن هناك أرضية خصبة ساعدت على نمو هذه التيارات في أوساط المسلمين، لهذا نعتقد أن العالم الإسلامي بحاجة إلى جهد كبير في هذا العصر، حتى يرمم، ويتلافى التشويه الذي حصل لصورة الإسلام، ولقداسة القرآن أمام الرأي العام العالمي، ولا يصح لنا أبدًا أن نرضى عن أنفسنا لمجرد وجود بعض الأنشطة القرآنية داخل مجتمعاتنا الإسلامية، إننا لا نستطيع أن نرسم هذا الضعف الذي حصل في سمعة الإسلام والقرآن أمام العالم، إلا إذا أطلقنا حملة واسعة، يجهر فيها العدد الأكبر من علماء الإسلام بأرائهم ضد الإرهاب، وضد التخلف والاستبداد، بحيث يرى العالم الغربي الصورة الصحيحة للإسلام والمسلمين، صورتنا أصبحت مخجلة أمام العالم، بسبب هذه التوجهات الإرهابية المتشددة المتطرفة، إذًا مع التقدير للأنشطة القرآنية الموجودة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، من اهتمام بطبع القرآن، إلى اهتمام بحفظ القرآن، وتلاوة القرآن، وترتيله، لكن ذلك كله ليس في مستوى التحدي، ولا يستطيع أن يغيّر الصورة المشوهة التي ارتسمت للإسلام والقرآن.

■ الأستاذ محمد الشيبب: سماحة الشيخ كيف تقومون مدى الاهتمام

بـ القرآن في أوساط أتباع أهل البيت؟

الشيخ الصفار: لا بد أن نعترف أن هناك قصورًا وتقصيرًا كبيرين، على مستوى حوزاتنا العلمية، ومجتمعاتنا، وهذا ليس اتهامًا من أحد يوجه للحوزات العلمية، وإنما هو اعتراف وإقرار من علماء كبار في حوزاتنا العلمية، لاحظوا هذا التقصير، ودعوا إلى تجاوزه ومعالجته، في حوزاتنا العلمية لم يأخذ القرآن الكريم المكانة التي يجب أن يأخذها في مجتمع ينتمي إلى الثقيلين كتاب الله وعتره رسول الله

ﷺ، كما قال رسول الله ﷺ «فإن التمسك ينبغي أن يكون بهما» فإنكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي»، وأهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام كانوا يأمرونا أن نعرض أحاديثهم، وما ورد عنهم على القرآن الكريم، وأعتقد أن بعض ما تسرّب إلى تراثنا الشيعي من أخطاء ومن غلو، من أسبابه الرئيسة ضعف الثقافة القرآنية، وعدم محورية القرآن، ليس على نحو العموم، وإنما على نحو الأغلب، لو أننا في الأحاديث والروايات والعادات والتقاليد، عرضنا كل ما في تراثنا على القرآن الكريم، لاستطعنا أن نميِّز بين كثير من الغث والسمين، بين الصحيح والخطأ، بين ما ينبغي أن يقبل وما لا يقبل، أئمتنا عليهم أفضل الصلاة والسلام حذرونا من أن هناك كذبًا كثيرًا عليهم، من أن هناك دسًّا في كتبهم، كما روى هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله ﷺ يقول: (لَا تَقْبَلُوا عَلَيْنَا حَدِيثَنَا إِلَّا مَا وَافَقَ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، أَوْ تَجِدُونَ مَعَهُ شَاهِدًا مِنْ أَحَادِيثِنَا الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ سَعِيدٍ لَعَنَهُ اللَّهُ دَسَّ فِي كُتُبِ أَصْحَابِ أَبِي، أَحَادِيثَ لَمْ يُحَدِّثْ بِهَا أَبِي، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَقْبَلُوا عَلَيْنَا مَا خَالَفَ قَوْلَ رَبِّنَا تَعَالَى وَسُنَّةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ^(١))، وبالفعل على الصعيد النظري العلمي، ليس عندنا كتب صحاح نعتمدها بالكامل، لعل من الفوارق الأساس بيننا وبين مدرسة إخواننا أهل السنة، أن عندهم بعض الكتب، اعتبروها صحاحًا كصحيح البخاري، وصحيح مسلم، ولكن علمائنا لم يعتبروا أيًا من الكتب والمجاميع الحديثية مقدسة، بحيث أن كل ما فيها صحيح، هناك بعض الآراء عند بعض علمائنا السابقين ترى صحة ما ورد في الكتب الأربعة: الكافي، والتهذيب، والاستبصار، ومن لا يحضره الفقيه، لكن رأي المحققين من علمائنا، وهو الرأي السائد عند فقهاءنا، أن هذه المجاميع الحديثية يجب أن يخضع كل حديث فيها لقواعد علم الرواية والدراية، بناءً على ذلك كان ينبغي أن نعرض هذه الروايات والأحاديث على كتاب الله، وفق الضوابط العلمية، وبالتالي نميِّز ما بين هذه الروايات والأحاديث، وهذا في المجال الفقهي معمول به، في البحوث الفقهية نجد أن هناك دقة الفقهاء يبذلون جهودًا كبيرة، كل حكم شرعي يبحثون عن

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٥٠.

آيات الأحكام فيه، ويبحثون عن الروايات، ويبحثون عن آراء الفقهاء، وبالتالي كل مسألة فقهية عندنا حولها تراكم علمي معرفي، على ما هنالك من ملاحظات في المسار الفقهي، لكننا نعاني مشكلة كبيرة في المجال العقدي والتاريخي، حيث لم تبذل جهود كافية لتمحيص تفاصيل المسائل العقدية والأحداث التاريخية، وتركت لهذا التراث المترام، وللآراء الدخيلة، وكذلك في المجال السلوكي والأخلاقي، كثير من القضايا الأخلاقية التي يعبر عنها بالمستحبات والسنن بناءً على قاعدة التسامح في أدلة السنن، لم يجر البحث في كثير منها، ولم تحصل محورية لآيات القرآن الكريم على هذا الصعيد، لذلك تجد في بعض الأحيان تُقدم بعض الروايات والأحاديث الضعيفة على آيات قرآنية محورية، وهذا ما رفضه أئمتنا أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم، حيث قدموا قيمة الوحدة مثلاً، وقيمة العدالة، وقيمة الحرية، هذه القيم الأساس التي ينادي بها القرآن على كثير من القضايا الجانبية.

■ الأستاذ محمد الشبيب: بالتحديد في منطقة القطيف الكثير من المؤسسات القرآنية التي وجهتم قبل سنوات إلى ضرورة توحيدها، وتوحيد المسمى، وطباعة المناهج، وإقامة المسابقات الموحدة، ما هي توصياتكم في هذا المحفل في هذه المؤسسة؟

الشيخ الصفار: لأنكم أشرتُم إلى هذا الاقتراح أود التوضيح، إننا في محافظة القطيف لدينا أنشطة في مختلف المجالات في مدننا وقرانا، وهذا أمر جيد وممتاز، نحن بحاجة إلى مرحلة جديدة، أن تصبح عندنا مؤسسات كبيرة في كل مجال على مستوى المحافظة، وتكون لها فروع في مختلف المناطق، مثلاً النشاط القرآني جميل أن تكون عندنا في كل مدينة وقرية مؤسسة قرآنية، ولكن ينبغي أن تكون مؤسسة مركزية على مستوى المحافظة، بحيث تصبح هذه المؤسسات القرآنية أشبه بالفروع لها وضمن هذه المؤسسة القرآنية على مستوى محافظة القطيف، يكون هناك تعاظم على المستوى الوطني والعالمي، وتعاون في المناهج، لا أعتقد

أنه من المناسب أنه يكون لكل قرية منهج خاص يختلف عن القرية الأخرى، أو برامج خاصة، يحتاج أن نفكر في هذه المحافظة كمنطقة، وكوحدة اجتماعية، وتكون عندنا مؤسسات مركزية لمثل هذه المجالات، فعلى مستوى المملكة يوجد مؤسسات قرآنية ضخمة، الدولة تتعاطى معها، والعالم يتعاطى معها، نحن لا نستطيع أن نتعامل على مستوى مؤسسات جزئية في كل قرية، هذا مقترح قابل للنقاش، نحتاج إلى مؤسسة مركزية، يتم فيها تراكم الخبرة والتجربة، ويتم عبرها التعامل على المستوى الوطني والعالمي، مثلاً نحن بحاجة إلى موقع الكتروني قرآني، تشترك فيه مختلف الطاقات والقدرات، بحيث يكون موقع على المستوى العالمي، كما نرى موقع إسلام أون لاين، وموقع الإسلام اليوم، مواقع ضخمة، يعمل فيها عشرات الأفراد إن لم يكن مئات الأفراد، ولها ملايين الزائرين، ولا يصح أن نكتفي بمواقع صغيرة على مستوى قرانا ومناطقنا، بحيث يشتغل بها شخصان أو ثلاثة، ويدخل عليهم مئة أو مئتا زائر، هذا مستوى ينبغي أن نتجاوزه، نحتاج إلى موقع الكتروني قرآني يعبر عن كل المنطقة، وتشترك فيه كل الجهود، كذلك بالنسبة إلى المجالات، نحن بحاجة إلى مجلة قرآنية مركزية، تعبر عن المستوى الرفيع في دراساتنا القرآنية، وهذا يحتاج أن نفتنح بهذه الفكرة إن وجد أنها فكرة صالحة، وإلى أن نتحلى بالمرونة النفسية، بحيث نتجه إلى الهدف، وإلى المقصد الأساس، وليس مسألة الانتصار لقريتي ولجماعتي، بمقدار ما نسعى لإظهار هذه المنطقة بالمظهر اللائق، وتكريس الخبرات والتجارب فيها.

■ الأستاذ محمد الشبيب: قبل ختام الحوار، سماحة الشيخ هنالك العديد من التفاسير عند الشيعة والسنة، على الصعيد الشخصي إلى أي هذه التفاسير ترجعون عادة عند البحث حول آيات الكتاب المجيد؟

الشيخ الصفار: أنا شخصياً في أي آية، ارجع إلى مجموعة من التفاسير، وفي بعض الأحيان حينما أحتاج إلى تعمق أكثر في الآية الكريمة، فإنني ارجع إلى

مجموعة أكبر من التفاسير.

على المستوى الشيعي، أرجع إلى تفسير الميزان للسيد الطباطبائي، وتفسير الأمثل للشيخ مكارم الشيرازي، وتفسير من هدى القرآن للسيد المدرسي، وتفسير من وحي القرآن للسيد فضل الله، أما إذا كانت آيات أحتاج فيها إلى بحث أكثر، فإنني أرجع إلى عدد أكبر من التفاسير، كتفسير السيد السبزواري، وتفسير الدكتور الصادقي، وتفسير مجمع البيان، وتفسير الشيخ محمد جواد مغنية، أما في تفاسير إخواننا أهل السنة، فإنني عادة ما أرجع إلى تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، وإلى تفسير الشيخ السعدي باعتباره يعبر عن وجهة النظر السلفية في المملكة، لذلك أحرص على الرجوع إليه، وإلى تفسير في ظلال القرآن للسيد قطب، وحينما تكون الآية تحتاج إلى بحث أكثر أرجع إلى الفخر الرازي، والطبري، والآلوسي، وسائر التفاسير.



المصادر

- القرآن الكريم.
- ابن أبي الحديد: عز الدين عبد الحميد، شرح نهج البلاغة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، (بيروت: دار الجيل).
- ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية).
- ابن شعبة الحراني: الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول، الطبعة الخامسة ١٩٧٤م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).
- ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، المحقق: علي محمد البجاوي
- الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، (بيروت: دار الجيل).
- ابن كثير: إسماعيل القرشي، تفسير القرآن العظيم، طبعة ١٤٣٦هـ، (بيروت: دار الكتاب العربي)

- ابن هشام: عبد الملك، السيرة النبوية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
- الألباني: محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ، (بيروت: المكتب الإسلامي).
- الألباني: محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزيادته، طبعة ١٤٠٨، (بيروت: المكتب الإسلامي).
- الألوسي: السيد محمد شكري، روح المعاني في تفسير القرآن، طبعة ١٤٢٩هـ، (القاهرة: دار الحديث).
- البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، طبعة ١٤٢٠هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية).
- البروجردي: آقا حسين، جامع أحاديث الشيعة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، (قم المقدسة).
- البغدادي: عبد القادر بن عمر، خزانه الأدب ولب لباب لسان العرب، (القاهرة: مكتبة الخانجي).
- البغوي: محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
- الترمذي: محمد بن عيسى، سنن الترمذي، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية).
- التميمي: عبد الواحد الأمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، طبعة ١٤١٠هـ، (بيروت: دار الكتاب الإسلامي).
- الحافظ المنذري. صحيح الترغيب والترهيب، تحقيق محمد ناصر الدين

- الألباني، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، (بيروت: المكتب الإسلامي).
- الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث).
 - خالد: خالد محمد. رجال حول الرسول، طبعة ١٤٢٢هـ، (بيروت: دار الفكر).
 - الروحاني: السيد محمد، منهاج الصالحين، ، الطبعة الثانية، (بيروت: دار الزهراء).
 - الزحيلي: وهبة، الفقه الاسلامي وأدلته، ، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ، (دمشق: دار الفكر).
 - زين العابدين: علي بن الحسين، الصحيفة السجادية.
 - الشيرازي: ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، طبعة ٢٠٠١م، (قم المقدسة: مدرسه الإمام علي بن أبي طالب).
 - الصدوق: الخصال، صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري، طبعة ١٤٠٣هـ، (قم المقدسة: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية).
 - الصدوق: محمد بن علي بن بابويه القمّي، من لا يحضره الفقيه، تحقيق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثانية (قم المقدسة: جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية).
 - الصفار: محمد بن الحسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمد، (طهران: منشورات الأعلمي).
 - الطباطبائي: السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

- الطبراني: سليمان بن أحمد، كتاب الأوائل، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة).
- الطبرسي: أحمد بن علي بن أبي طالب، الاحتجاج، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ، (إيران: دار الأسوة للطباعة والنشر).
- الطبرسي: الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ١٤١٥هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).
- الطوسي: محمد بن الحسن، الأمالي، طبعة ١٤١٤هـ، دار الثقافة.
- الطوسي: محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، طبعة ١٩٨٥م، (طهران: دار الكتب الإسلامية).
- الفضلي: عبدالهادي، دروس في أصول فقه الإمامية، طبعة ١٤٢٨هـ، (بيروت: مركز الغدير للدراسات والنشر).
- القرطبي: أبو عبدالله محمد، تفسير القرطبي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)
- الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي، طبعة ١٤٠٥هـ، (بيروت: دار الأضواء)
- الليثي، علي بن محمد، عيون الحكم و المواعظ.
- المتقي: علاء الدين علي، كنز العمال، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة).
- المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
- المطهري: مرتضى، محاضرات في الدين والاجتماع، الطبعة الأولى

- ٢٠٠٠م، (بيروت: الدار الإسلامية).
- المفيد: محمّد بن محمّد بن النعمان، الاختصاص، تحقيق علي أكبر الغفاري، الطبعة السابعة ١٤٢٥هـ، (قم: مؤسسة النشر الإسلامي).
 - المفيد: محمّد بن محمّد بن النعمان، الارشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ، (بيروت: دار المفيد).
 - الموسوي: محمّد الرضي بن الحسن، نهج البلاغة، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، (بيروت: دار الكتاب اللبناني).
 - النوري: حسين بن محمد تقي بن علي، مستدرك الوسائل، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث).
 - الواحدي: علي بن أحمد، أسباب نزول القرآن، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، (بيروت: دار الكتب العلميّة)
 - ورام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورام)، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).
 - صحيفة المدينة السعودية.
 - صحيفة الجزيرة السعودية.
 - وكالة الأنباء السعودية <https://www.spa.gov.sa>
 - موقع آراء حول الخليج. [/http://araa.sa](http://araa.sa)



المحتويات



مفتتح	٥
الفصل الأول: أفلا يتدبرون القرآن.....	٧
القرآن المهجور.....	١٥
القرآن شفاء.....	٢٩
القرآن موعظة.....	٣٣
الشباب والعودة إلى القرآن.....	٣٧
الفصل الثاني: مبادئ التعايش الإنساني	٤٣
لتعارفوا.....	٥٧
الفصل الثالث: ثقافة الرشد الاجتماعي.....	٦٥
حرية الرأي وتقدم المجتمع	٧٣
النقد الذاتي الاجتماعي.....	٧٩
الآلام والآمال بين الأقوال والأعمال	٨٥

- الجرأة في طرح الآراء الإصلاحية ٩٣
- المطففون والكيل بمكيالين ١٠١
- المسؤولية الفردية واستقلال الشخصية ١٠٧
- الفصل الرابع: في العلاقات الاجتماعية ١١٥**
- حسن الظن وأثره في العلاقات الاجتماعية ١٢١
- التودد إلى الناس ١٢٧
- اللمز والتنازع من مساوئ الأخلاق ١٣٣
- الغيبة وتدمير العلاقات الاجتماعية ١٤١
- لا يسخر قوم من قوم ١٤٩
- التجسس وهتك أسرار الآخرين ١٥٧
- الصراعات الداخلية في المجتمع ١٦٣
- معالجة الأزمات واطفاء الحرائق ١٦٩
- الحوار القرآني ١٧٥
- المصادر ١٨٣
- المحتويات ١٨٩